MENA PRISON FORUM
مُنتدى المَشرِق والمَغرِب للشُّؤون السِّجنيَّة

# أجساد راقصة

## رواية قصيرة

**أحمد عبد الحليم**

ifa Institut für Auslandsbeziehungen
Auswärtiges Amt

umam للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research

الدفتر السادس

بيَضاء في الأصْل

أحمد عبد الحليم

# أجساد راقصة

## رواية قصيرة

ifa Institut für Auslandsbeziehungen
Auswärtiges Amt

MENA PRISON FORUM
مُنتدى المَشرِق والمَغرِب للشُّؤون السِّجنيَّة

UMAM
للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research

**منتدى المشرق والمغرب للشّؤون السجنيَّة**
[مشروع بتوقيع **أمم للتوثيق والأبحاث**]
دفاتر المُنْتَدى [٦]
بيروت، ٢٠٢٠/٢٠١٩
هاتف: ٥٥٣٦٠٤ ١ ٩٦١ +
صندوق بريد: ٢٥ ـ ٥ الغبيري، بيروت ـ لبنان
مُراجعة وتدقيق: صلاح الـجـيلاني

MENA PRISON FORUM
مُنتدى المَشرِق والمَغرِب للشُّؤون السِّجنيَّة
أمم للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research

www.umam-dr.org | www.menaprisonforum.org

ifa Institut für Auslandsbeziehungen
Auswärtiges Amt

إنَّ الآراءَ الـوارِدَةَ فـي هـذه المَطْبوعَـةِ التـي كان إنْجازُهـا ونَشْـرُها بِدَعْـمٍ مِـنْ «مَعْهَـدِ العَلاقاتِ الثَّقافيَّـةِ الخارِجيَّـة (ifa)» ـــ (المُمَوَّلِ مِـنْ وِزارَةِ الخارجيَّـةِ الألمانيَّـة) ـــ إنَّ هـذه الآراءَ تُعَبِّـرُ، حَصْرًا، عَـنْ وُجْهَـةِ صاحِبِهـا وناشِـرِها، وعَلَيْـهِ فهـي لا تُلْـزِمُ، بـأيِّ شَـكْلٍ مِـنَ الأشْـكالِ، المَعْهَـدَ، ولا تَعْكِـسُ، بالضَّـرورةِ، مُقارَبَتَـهُ المُؤَسَّـساتيَّةَ مِـنَ المَسـائِلِ مَوْضـوعِ البَحْـثِ والـرَّأْي.

على سبيل التقديم

# كُلُّ هذه الخبائِثِ السِّجْنُ أيْضًا...

فضيلة هذا النص في تصدّيه لـ«التجربة السجنية» أنه لا يتفلسف، بالمعنى المذموم للكلمة، بل يسرد ويصف ويقصّ، وإذ يمضي النصّ في سرده ووصفه وقَصِّه، وإذ يُصرّ صاحبه، أحمد عبد الحليم، على وصف نصِّه بـ«الرواية القصيرة»، يترك المطالع/المطالعة لشأنه فيستولي عليه تارة من الشعور بالضيق ما تَضيقه الزنزانة على أهلها وأصحابها، وتزكم أنفه، تارة أخرى، رائحة الخبائث التي يسعى السجين إلى «إدارة» التَّخَفُّفِ منها، وقد لا يخلو، عندما يصل الأمر ــ والأمر هنا هو عين النص ــ إلى تباضع الأجساد، حقيقةً أو افتراضًا، أن يتلمَّس جسده ليتأكَّد من أن جسده هو في مأمن ممّا يجري وأن الأمر لا يعنيه!

للكاتب أن يصرَّ ما يشاء على أن نصَّه «رواية قصيرة»... إصراره يلزمه ولا يلزم القارئ الذي لا يني يتساءل، كلّما أمعن النص في تقليب «الخبائث»، من أين يأتي صاحبه بكل هذه الدقّة في الوصف والتشريح، مشككًا بما يريد صاحب النصّ لنصِّه أن يحمل عليه...

«رواية قصيرة» أم شهادة متخيَّلة أم غير ذلك، يتابع هذا الدفتر، السادس من دفاتر منتدى المشرق والمغرب للشؤون السجنية، التملّي من السجن مذكِّرًا بأن السجن ليس فكرة تعبر وإنما محنة قلَّ من يخرج منها كما ولجها.

بيضاء في الأصل

# المسرح

وَقَفَـتِ الأجسـادُ تـتراقصُ علـى المسـرح، آمِلةً أن تنـال رِضى المُتـفرجين، هكـذا قـال لـيَ العجـوز بعـد أن انتـهى مـن تَبَـرُّزه، مكث يحكـي عن هذا اليـوم حتـى مللـتُ منه، يـوم أن خرج السـجناء لـيُمثِّلوا مسـرحيةً كوميدية للباشَـوات زائـري السـجن بــقصد الاطمئنـان علـى أجسـاد السـجناء، وما إنِ اطــمأنّوا علـى أجسـادهم، حتـى جلــسوا يضحكـون عليهـا، كانـوا أكثـر من عشـرين نفـرًا ومـن بينهـم ضبّـاط السـجن، قعـدوا ومـن ورائهـم وقـوفٌ رجـال مِـن السـلطة، بعضهـم كانـت تـتربَّع قـدمٌ لهـم علـى عـرش أختهـا، يفعلـون هـذا مـن أجـل تحقيـق السِّـيادة أكثـر، والسـجناء ظلّـوا أكثـر مـن نصـف سـاعة، يُمثِّلـون أنهـم ليسـوا سـجناء، هكـذا كانـت المسـرحية.

قاطعـتُ الحـكَّاءَ أكثـر مِـن مـرَّة، ليـس مـن عادتنـا أن نتحـدث كثيـرًا، أنـا أُحـاول أن أنسـى رائحـة بُـرازه العَفِنـة التـي تكوَّمـتْ بـجوارنا، وهـو غيـر مُشـمٍّ لهـا، فالإنسـان عـادةً لا يشـمُّ نفسـه. سـألتُه أيـن الحـارس اليـوم، لمـاذا لا يُنـادي، أحـاول أن أُسكِـتَه فقـط، ونجحـت، ولكـن كان الحـارس مُتأخـرًا بالفعـل، علَّـه لا يأتـي.

مـن الغريـب وبعـد كل ذلـك، أنّ العجـوز مـا زال يحكـي، وأنـا أيضًـا مـا

زلـت أتكلَّـم بـلسان الإنسـان، أقصـدُ أنـي أنطـق الحـروف كمـا هـي، أنطـق التـاء والميـم والألـف والميـم، وأقـول «تمـام» هـذه هـي اللغـة، لا تتغيّـر مهمـا تغيَّـرتْ حيـاة ناطقهـا. تغيَّـرتْ حياتـي بالفعـل، لـو أنَّ الحـروف واللغـة وصـوت اللسـان يتغيَّـر مـع تغيُّـر الحيـاة، لـكنتُ أنـادي الآن بالهـاء والـواو، وأنـادي بـ«هـوّ».. هـوّ وليـس هُـوَ، أقصـد نـباح الـكلاب، ولكـن هـل كانـت حياتـي تُشـبه حيـاةَ الـكلاب، هـذا ليـس إنصافًـا للـكلاب، هـي كانـت حيـاةً مُروَّضـة... حيـاةً عقابيـة، عندمـا يُروِّض المـدرِّب حيوانـه، كـي يُقدمـا سـويًّا عرضًـا مسـرحيًّا وسـط تصفيـق أيـادي النـاس فـي السـيرك، نحـن كنّـا كذلـك مـع اختـلافٍ بسـيط، الحيـوان لا يفهـم كثيـرًا، ويُـروَّض مـن أجـل تقديـم العـرض، أمـا أنـا فـلا أحـد يُصفـق لـي.

كنـتُ أروَّض كُرهًـا، ولكـن مـع الوقـت أصبـح طوعًـا، حـركات بديهيّـة أفعلهـا تنتمـي إلـى عالـم حيـاةٍ موجـود، عالـمِ العقـاب، عالـمٍ يُغيِّـر كلَّ شـيءٍ عـدا اللغـة، ولكنَّـه يتحكَّـم فيهـا أيضًـا، يُهندسـها بالمعنـى التكنولوجـيّ، لأنـك لا تسـتطيع أن تُرتـب كلَّ الحـروف لـتنطق كلمـاتٍ وجُمـلًا غيـر التـي يريـد سـماعها رجـال سـلطة هـذا العالـم، العبـارات التـي تُعبِّـر عـن ضجَـرك واعتراضـك، حروفهـا لا تكتمـل أبـدًا وإنِ اكتملتْ، تُعاقَـب حتـى تُـنادي مـرةً أُخـرى بـحروف المَغفِـرة والرحمـة.

وكأننـي أصعـد جبـلًا لا ينتهـي، ولا مفـرَّ مـن الصعـود. الأيـام أصبحـتْ كالروايـة الطويلـة، ومـع كثـرة الأوراق، تبعثـرتِ الأحـداث مِنِّـي، ليسـت الأحـداث فقـط، بـل كلّ شـيءٍ. تشـقلبتِ الفصـول، بدايـتها تائهـة، مَـللُ تكـرار الحـروف شـوَّش عقلـي.
وَقَـفْتُ... أمامـي مشـهدٌ اشـتباكيّ، أجسـاد رجـال العقـاب والسـجناء، لا

أعـرف مَـن يضـرب مَـن. العِصـيُّ فـي الأيـدي، والأمهـاتُ الزانيَـة والوسِـخة تتطايـر فـي الهـواء خارجـةً مـن الأفـواه. قـد ثـار السـجناء، امتنعـوا، رفعوا رؤوسـهم، تذكَّـروا أنهـم أسـماء، نسـوا الأرقـام، لـن يتبـرَّزوا أمامهـم مـرةً أُخـرى، لـن يرقصـوا علـى المسـرح، حافظـوا علـى اسـتباحة مؤخّراتهـم، أجسـادُ ذَويهـم أيضًـا لـن تُسـتباح بعـد الآن. جـاء جنـودٌ بـلباسٍ مِيـريّ مُكتمـل، جنـودٌ كُـثُر، خـوذات وعصـيّ أكثـر سـوادًا، وأجسـادهم أكثـر مرونـة، الاشـتباك فُـضّ، أُسِـرَ السـجناء مـرةً أخـرى، انبطحـوا عنـوَةً، وصـارت أجسـادهم مداسـاتٍ للجنـود. انتهـى الاشـتباك، فـي بالـي. أسـرِع... أسـرِع، أنـا خـارجٌ الآن، دعِ الوقـت يمـرّ، لا تتباطأ بـحُجَّة الأوراق والإجـراءات. كلبِـش يـدي، أوصِلنـي سـريعًا إلـى العربـة الزرقـاء، أُريـد أن أُطِـلَّ علـى العالـم مـرةً أخـرى، انتهـى دوري فـي هـذا العالـم، هـي مسـرحيَّة، صفِّقـوا لـي وأخرجونـي، انتهـى دوري، ولكنَّهـا كانـت بدايـة جديـدة.

انْحَنَـتْ رقبتـي، وكلمـا فَعَلَـتْ أكتشـفُ هَرولـةَ بدلتـي الزرقـاء أكثـر، يبـدو أنهـا أكبـر وسـعًا ممـا تخيَّلـت، تَطايُـرُ الهـواء مـع قماشـها الهشّ يُثـبت لـي ذلـك، وللإنصـاف الذنـبُ ذنـبُ نحافتـي. للأسـف توقَّفـتِ العربـة ذات الشـبابيك السـلكيَّة حابسـة الأنفـاس، فـي عـزِّ النهـار، وهـذا يعنـي حريـق انصهـار الشـمس علـى جلودنـا. ظـلَّ بابـها يُحلق لـي ولهم طيلـة ربـع سـاعة، وكلّمـا صمَّـمَ علـى إغلاقـه زادت خنقتنـا، النـون فـي «خنقتنـا» تعنـي أنـي برفقـة أكثـر مـن ثلاثيـن سـجينًا فـي عربـة زرقـاء ظاهرُهـا وباطنُهـا أسـودٌ ـــ كان أزرقًـا قبـل أن يُلوِّنـه التـراب العكِر. صوت صفيـر الحديـد يُناديـنـا، فُتـح البـاب... ونزلنـا.

تحـرَّرتْ أيدينـا مـن الحديـد، قيـل لنـا ارتـصُّوا، ومَشـينا فـي هـذا الصـف

الـذي رُصَّ. لا مانـع لـديّ أنَّ أمِّـي وسـخة، ومَـن معـي مـن السـجناء لا يعارضـون أنَّ أمَّهـم زانيَـة، لا نعـرف أيـن اتَّسـخت ولا مـع مَـن زَنَـتْ، ولا حتـى الشـتَّام يعـرف، هـو يصفُنـا مـن بـاب الإهانـة فقـط، يريـد أن يقـول لنـا إن أمهاتنـا لـم يَقـدِرنَ علـى تربيتنـا ولذلـك جِئنـا هنـا لـنتربّى. اكتشـفتُ أيضًـا أن عنـق البدلـة قصيـر، كان عـرض كَـفِّ السـجان أكبـر مـن عـرض قفـا أشـجع واحـد فينـا، والحقيقـة أنْ ليـس فينـا شـجاع، كلنـا زارتْـنا الرهبـة حينهـا، بانـت تلـك الرهبـة فـي رعشـة أجسـادنا.

لـم أقِـفْ كذلـك منـذ أن غـادرتُ الصـفّ الخامـس الابتدائـيّ، وَجهـي للحائـط، يـديَّ مُسـتقيمتان للأعلـى، لا ألتفـت، قدمـاي ثابتـتان، مُذنـبٌ كعادتـي، لا أتكلّـم مـع أحـد، ولـم أنـسَ كتـاب المـادّة، مُخطـئ... ليـس وقتـك يـا عقلـي كـي تتذكّـر طفولتـك الجميلـة، هـي جميلـة بالنسـبة لمـا يحـدث الآن. بـدأتُ فـي خلـع ملابسـي، ليـس إلا تنفيـذًا لِمـا سـمعت، يـا لَيْتنـي أُصَـمّ، بدأنـا نلتفّـت ونـرى بعضنـا، عرايـا ليـس إلّا قطعـة الملابـس الداخليـة السُّـفلى التـي تُغطّـي رمـز ذكورتنـا العزيـز. عـادةً لا أحـب أن أقـف عاريًـا، ولكـن أنـا الآن أمـام السـلطة، فـلا حـرج مـن تعرِيَتـي. طقطقـتُ أذنـي جيـدًا، قالـوا مَـن يسـمع أول اسـمَين مـن اسـمه يُكمـل الاسـم إلـى آخـره ويأتـي بـكِيسه إلـى مُخبـر التفتيـش، الآن تسـاوَت نسـبة تركيـزي حينمـا كنـت فـي امتحـان الفيزيـاء فـي الشـهادة الثانويـة، نجحـتُ فـي الإجابـة علـى بقيَّـة اسـمي، أمـا نتيجـة امتحـان الفيزيـاء فـلا داعـي للخَيْبـات.

كنـت مُرتعبًـا مـن فقـدان الذاكـرة، وحملـتُ حقيبتـي الثقيلـة بـيُسراي، ذاهبًـا إلـى التفتيـش، وقعـتْ عينـي علـى شـعر فخـذي المُبتـلِّ بالعـرَق، يبـدو أن العـرَق حمَّـى جلـدي، لا بـأس، أفضـل مـن غيـري المبتـورة يـداه

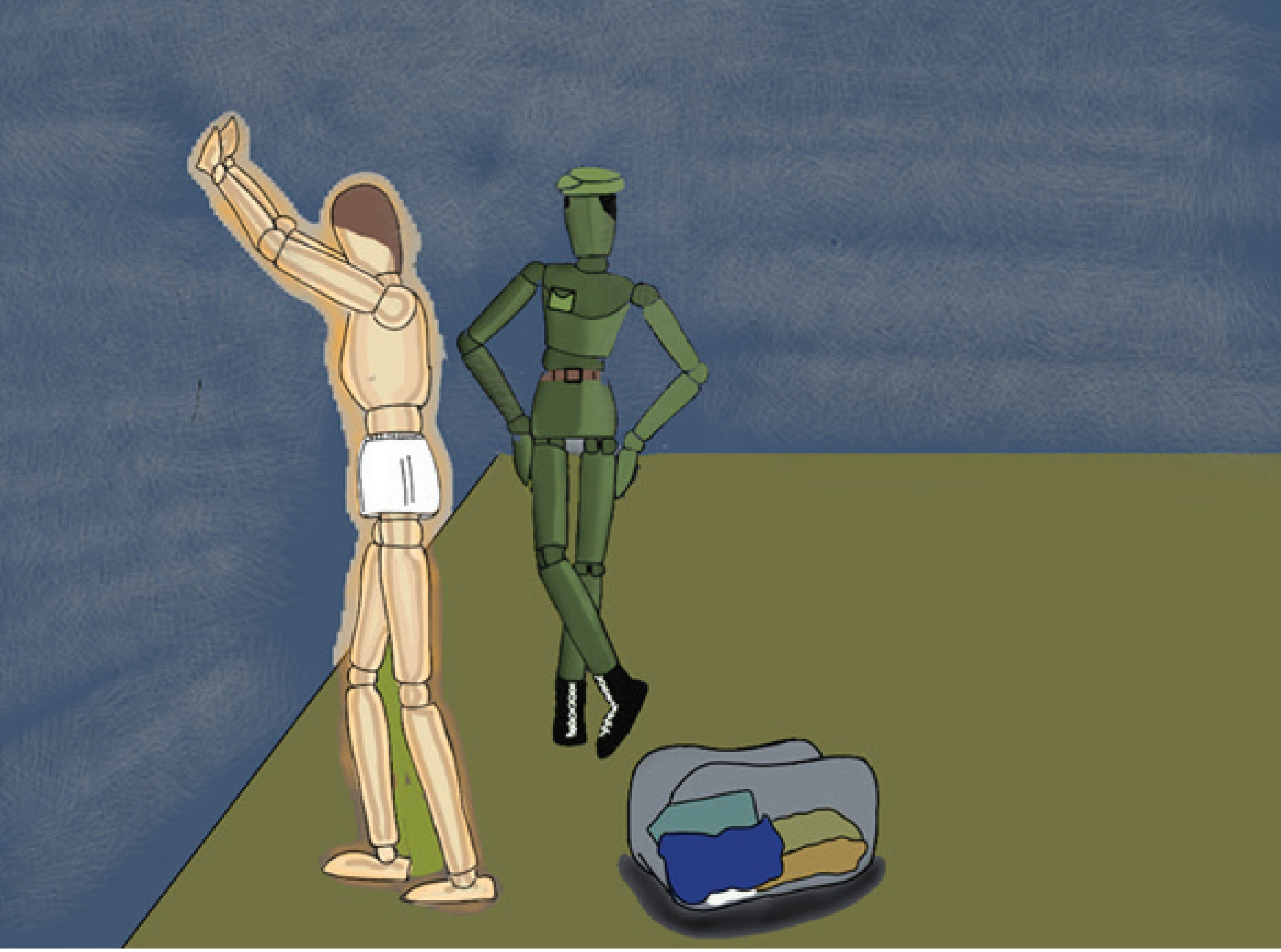

وقدماه. كان أمام عيني، سجينٌ ثلاثينيٌّ استطاع أن يحمل كيسه بفمِه كالكلب، كان بارعًا، وزحف يتدحرج مسرعًا نحو مُفتِّشه، هُم عاملوه بقسوةٍ، وصراحة معهم الحق كيف يُسجن وجسدُه ناقص، هو بذلك يتحدَّاهم في خبرتهم بالتحكّم في أجساد الناس، لو كُنت سجَّانًا لحبستُ بَوْله وبِرازه أسبوعًا كاملًا حتى يتعلَّم واجب السجين تجاه سجَّانه.

هنا أدركتُ أن الإنسان كلَّما خلع ملابسه كلَّما ازداد خبرة، ولذا تراجعت عن أمنيَتي بأن أصبح أصمًّا، لأن في هذه الحالة كانوا سيُعطونني التعليمات بأيديهم وأرجلهم، وهذا فوق تحمُّل جسدي

الهزيـل. لـو أنَّنـي أُنجِّـم علـى الزمـن لـذهبتُ إلى نـوادي تقوية الجسـد، ولكنّـي كالكلـب، ينقصنـي بَتـر اليـد والقـدم حتـى أزحـف.

لـم يَنْـسَ حضـرة الباشـا المُفتِّـش أن يقـول لـي بعـض البديهيّـات المُسـتنكرة عـن ضيـاع مسـتقبلي، وتعـب أهلـي، ومـدى إعجابـي بإهانتـي، ولأنّنـي شـجاعٌ كنـت أحدّثـه أنّ صوتـي ظـلَّ منخفضًـا وكنـت أتمشّـى طيلـة الوقـت علـى الرصيـف، داخـل الحائـط كان مزدحمًـا فلـم أتمكّـن مـن الدخـول، وأنَّ أحـد الأشـرار زقَّنـي وسـط الشـارع، وسـط الليـل، وسـط العتمـة، وركبـتُ عربتكـم بالخطـأ وجئـتُ إلـى هنـا. علـى العمـوم لا داعـي للنـدَم. انتهـى التفتيـش، بـدأت فـي اسـترجاع إنسـانيَّتي عندمـا أدخلـتُ سـاقي اليمنـى فـي سـاق البنطـال اليُمنـى، أمـا كرامتـي كانـت تائهـةً لَـوْلا أن كُـمَّ البدلـة اكتمـل. يـا للجمـال، غطَّيـتُ جسـدي مـرةً أخـرى، أدبـي منعنـي مـن أن أرقُـص.

نـادى علينـا سـجَّانٌ آخـر، لا تسـتعجب، هُـم كُثـر، حتـى إن لـم ترَهـم، لـيفتح لنـا واحـدٌ مـن كثيـر باب قفـصٍ كبير، لـم أرَه قـط إلا فـي مكانَين: حديقـة الحيوانـات، ومَوْسـم المصارعـة الحُـرَّة فـي بـلاد بائعـة السـلاح الأمريكيـة. بالتأكيـد نحـن لسـنا مصارعيـن، لـنقف انتباهًـا أمـام ضابطَين أحدهمـا يلبـس الميـري وصاحبـه يرتـدي بنطـالًا وقميصًـا ملكِيًّـا. تعرَّفنـا علـى بعضنـا البعـض، عرَّفـا نفسَـهما بـنظَراتهما الاحتـقاريّة لنـا، ونحـن بابتسـامةٍ تأمَـلُ الشـفقة لأنّنـا كمـا وصفَنـا المُخبـر بالإيـراد الجديـد، الوافديـن الجُـدد يعنـي، ولذلـك تفـوَّه صاحـب القميـص المَلَـكِي آمِـرًا أن نُؤخَـذ إلـى الإيـراد.

# عاريـة

كـشابٍّ نحيـف، لـم يتطرَّق عقلي إلـى التفكيـر فـي أيّ شـيءٍ سـوى أن أتعـرَّف علـى مـا سيحدث، وأحـاول قـدر الإمـكان إظهـار التـودُّد. بالفعـل بـدأ الأمـر يتلطَّـف، حتـى لهيـب الشـمس خـفَّ مـن علـى جلودنـا، واسـتعدَّ للرحيـل، بينمـا نحـن داخـل مبنـى ليـس ضخمًـا كـبقية المباني، اسـتقبلَنا سـجينٌ أربعينـيٌّ بابتسـامة الخبيـر فـي الشـؤون القانونيّـة للسـجن، كان يعمـل مُسيَّـرًا، يسـاعد رجـال العقـاب فـي تنظيـم عـدم معيشـتنا أو عـدم موتِنـا، وقفنـا مُنتظريـنَ حتـى ضُـمَّ علينـا وافـدون جُـدد، وسـط ملفّـات كثيـرة، وأسـماء تُنطَـق ويُنـادى عليهـا، وإجـراءات فهمتُهـا بعـد ذلـك بالخبـرة، وفُتـح لنـا بـاب زنزانـةٍ ضيّقـةٍ علينـا، دخـل أقـلّ مـن نصفنـا تقريبًـا، تسـتطيع أن تعـدَّ خمسـة عشـر سـجينًا، والبقيّـة انتـظروا فـي الخـارج.

علـى مـا يبـدو أنّ كُلَّ السـجناء كانـوا يعرفـون، وخبرتـي الضئيلـة فـي المعرفـة تـجلَّى جهلُهـا علـى ملامـح وجهـي التـي اندهشـتْ. سـريعًا وبعـد أن سـمعت، وضعـت وجهـي فـي الحائـط مـرّةً أخـرى، خلعـتُ ملابـسَ نصـفِ جسـدي الأسـفل، البنطـال والشـورت، وقرفصنـا جميعًـا بهـذا الوضـع، تذكّـرتُ حديـث الضابـط فـي القفـص عندمـا سـألَنا: حـدّ

مِخـزِّن حاجـة، أو رافِـع حاجـة؟ عرفـتُ مقصـده، لـم أعـرف أن السـجناء يحتفظـون بالممنوعـات داخـل فتحـة شـرجهم، ولـذا أنـا هُنـا، كـي أقرفـص وأبـدأ بالتبـرُّز عسـى أن تنـزل الأشـياء المُخبـأة فـي معدتـي مـن شـرجي علـى الأرض.

هـذه المـرَّة، مؤخَّرتـي عاريـةٌ أمـام السـجَّان الواقـف وراءنـا جميعًـا، يرانـا ونحـن نحـاول إخـراج برازنـا، عرفـتُ أنّـه لا حـرج مـن ذلـك، وخصوصًـا أنّـه ابتعـد عنـا، وتباهـى بـعدم التركيـز مـع مؤخّراتنـا، مـا تأكَّـدتُ منـه أنّ بِـرازي تجمَّـد فـي أمعائـي ولـن ينـزل أبـدًا حتـى مـع مجـيء الطَّبْـلِ البَلَـدِي وإن عـزَف بتهوفـن مـن تُربَـتِه، ولا حـلَّ سـوى أن أنهـيَ نظراتـي لـقضيـبي المُدَلـدل تحتـي. فعلـتُ ذلـك ورفعـت ملابسـي، وقلـت لـه أنـي لا أحتـاج التبـرُّز الآن، وليـس معـي شـيء، لـو كان فـي شـرجي شـيء لَنـزل، وهـو بـدوره سـامحني لأنـه صدَّقنـي وخرجـت، كان أولَ موقـفٍ شـجاع مِنِّـي، وكان الأخيـر.

مـا الـذي حـدث؟ لا شـيء، إجـراءٌ استـثـنائيٌّ لإنسانٍ استـثـنائيّ، لـو أنك قـارئ مثقـف لَفهمـتَ معنـى أن تكـون استـثـنائيًّا، ولا حـرَج فـي الحَكي، كـي نتذكَّـر جميعًـا إجـراءاتِ السـجَّان عنـد دخـول السـجين، تقريبًـا نصـف سـاعة، والأمـر انتهـى للجميـع، سـنذهب إلـى زنزانـةٍ أخـرى. مـن الغريـب أنـه لـم يَأمُـر مَن تبـرَّز أن يُنظف مـكان برازه بِـيَده، أو بـلسانه، حسـب الأمـر، يبـدو أن إجـراء النظافـة يقـوم بـه سـجينٌ آخـر، مـا علينـا. الآن ذهبنـا إلـى زنزانـة مُجـاورة، تمتلـك نفـس الضيـق. دخلنـا وعددنـا خمسـة وثلاثـون سـجينًا، وسـجينان كانـا بالداخـل لـنُصبح سـبعة وثلاثين.

صـوت بـاب الزنزانـة يُغلـق وصفير سَكِّـها سـمعناه، حجـم الزنزانة تسـاوى

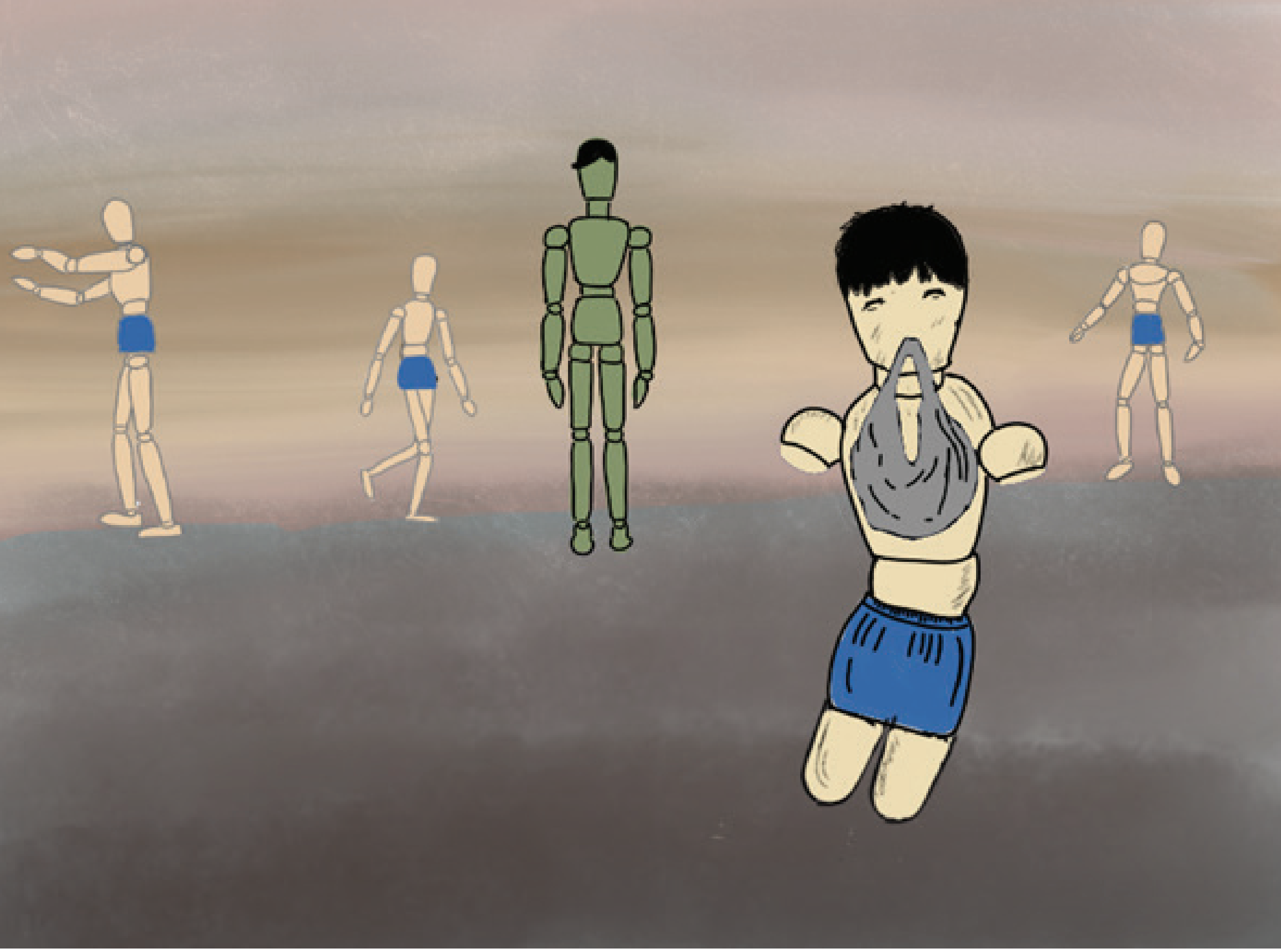

عندما الْتصقتْ أجسادنا بـبعضها. وسـط هـذا التِّيـه، صـاح السجينان القُدامـى، يَحُثُّونـا أن نُعلِّـق حقائبنـا علـى بعـض الحبـال المربوطـة، ومَـن لـم يتـبقَّ لـه حبـل، يُحـاول سَنـدها علـى الجـدران. الأهـمّ أن نجلـس ونفـرش علـى الأرض، حتـى لا نختنـق، أكَّـد بـصياحٍ أحدهمـا خوفًـا مـن الاختنـاق، لا أعـرف مـا المانـع الآن أن نختنـق. نـوَّه السـجينان أنَّ النـوم هنـا علـى جانـب الجسـد الأيمـن أو الأيسـر، أي لا أحـد ينـام علـى ظهـره، حتـى تسـع الأرض أجسـادنا. سـمعتُ صياحًـا لا أعـرف مِـن مَـن، تَبعتْـه ضحـكات بعدهـا مليئـة بـروائح جلودنـا السَّـمجة، جُملـة الصِّيـاح تعنـي أن لا أحـد ينـام علـى بَطنـه أيضًـا، كـي لا يأتـي أحـد ويُضاجعـه مـن الخلـف وهـو نائـم.

كلُّ شـيء أسـود فـي الزنزانـة، عـدا بصيـص مصبـاح أصفر ضعيـف مُصوَّب علـى عينـيّ، وحتـى مـع افتـراش الأجسـاد علـى جوانبهـا، تبقَّـى أحـد عشـر سـجينًا واقفًـا، لـيُنبِّه أحـد القدامـى أنهـم سـيُبدِّلون بعـد خمـس سـاعات مـع أحـد عشـر مـن المُفترشـين علـى الأرض، لـيتناوَبوا علـى ورديَّـات النـوم سـويًّا. كنـت مـن المُفترِشـين علـى الأرض مـن حظِّـي، لـم أنـم خـلال الخمـس سـاعات قبـل تسـليم ورديَّـتي، لا أعـرف لمـاذا لـم أنَـم، ربمـا خِفـتُ مِمَّـن يُجاورنـي لـيَقلب مـزاح المُضاجعـة إلـى الجـدّ، ولكنـه كان نائمًـا كالجُـثّة.

# البـرميـل

مـع خطواتــي، لا شـعور، مازِلـت لا أعـرف، كيـف ومتـى ولمـاذا؟ تمنَّيـتُ أن يمـرَّ الوقـت أكثـر مـن ذلـك، ليـس لاقـتراب الحريَّـة، بـل لأُصبـح سـجينًا قديمًـا، يعرفنـي النـاس، ليـس كلُّ النـاس، أُمنـاء السـجن والمُخبريـن والسـجناء ذوي السـلطة فقـط، وحتـى يتأقلـم جسـدي علـى الأرض وتتعـوَّد عينـاي علـى سـواد القضبـان، وأذنـي تَـتـمزَّج بألحـان الحديـد، ويغـرق عقلـي فـي حـبِّ السَّـجان، أو حُـب سـجينةٍ جميلـة. جاءتنـي فكـرة الحـبِّ عندمـا لمحـتُ سـجينات يتمشَّـينَ مِـن بعيـد، أجسـادهُنَّ داخـل عبـاءاتٍ زرقـاء مُهروَلـة، للأسـف ضَعـف نظـري لـم يتمكَّـن مـن لمـح تفاصيـل أجسـادهنَّ جيـدًا، ربمـا مـع الأشـهر القادمـة تـزداد سُـلطتي وأصِـل إلـى مـكان وجودهـنَّ بـأي حُجَّـة وأدقِّـق عينـي فيهـنَّ وأحـاول أن أَبنـي علاقـة حُـبٍّ مـع جميلتهـنّ، حتـى إن كانـت أكبـر منِّـي، وإن كانـت مُجرمـة، مـا العيـب! كُلّنـا نتـداوَل الخطـأ فـي مراحـل حيواتنـا، فمـا المانـع إن كانـت هـي سـرَقتْ أو زنَـتْ، كلّهـا أفعـال بيـن الخطـأ والصـواب حسـب قِيَـمِ الضميـر.

توقَّفـتْ خطواتـي... مـع حقيـبتي. وسـط مسـاحةٍ مسـتطيلة حوائـطُها، فـي كلِّ ضِلعَيـن ١٠ أبـواب، داخـل كلّ بـاب تجِـد زنزانـة. وفـي الضِّلعَيـن

الآخرَين بابان، بابٌ لدخول دورات المياه، وبابٌ للخروج من العَنبر. جيِّد، بدأ لحن باب الزنزانة يعتادُ على أُذني. فُتح باب زنزانةٍ منهم، رقم ١٨، دخلتُ على أهلها، لا أعرف منذ متى وهم ماكثون في هذا الكهف الضيِّق، كانت طَلَّتُهم عجيبة عليّ، وكأنّي أرى لأول مرَّة مخلوقات اللّه.

استمرَّ الحديث دقيقتَين بين مُسيَّر السجن وبين أهل الكهف، وهم يحاولون إقناعه أنّه لا مكان لي معهم، مُعلِّلين بضيق المساحة، أنا لا أعرف كيف يظنّون أنّهم مُتواجدون من الأساس، متأكّدٌ أن المساحة ضيقة، وبرغم ذلك نحن أصغر منها، ما المانع الآن أن نُكوَّم نحن الإحدى عشر جسدًا في ٣ أمتار طولًا وعرضًا. لم يهتمّ المُسيَّر لكلامهم وحقيقةً ولا أنا، كلُّ ما أردتُه أن أنام، بقيَ لي ١١ يومًا لا تُكمل عيني غفلتَها ساعة كاملة، أتمنّى أن أنام فعلًا. بعد أن يئِسوا في إقناع المُسيِّر، بدأوا في تعريف أنفسهم لي، حديث بسيط بين شابٍّ نحيل وبين رجال كِبار غلَب عليهم التعب واليأس.

كَحكحةُ أزوارِهم لا تهدأ فغلَب عليهم المرض أيضًا، بينما أحاول أن أقتنص ٣٠ سم مربع، أي عُشر المساحة كلها. شعرتُ بتطفُّلي، كان كلُّ واحدٍ منهم ينعَم بـ ٣٠ سم كاملًا. والآن جئتُ لأسلب من كلِّ واحدٍ منهم ٣ سم، ليُصبح نصيب الفرد مِنا بين ٢٧ سم إلى ٣٠ سم. أدركتُ أنَّ صاحب القدم والأيدي المبتورة أفضل مِنِّي، لو كنتُ مكانه لكنت الآن أكثر راحة في تلك المساحة، ولكنّي كنت سأزحف عند التفتيش... ليس وقته.

وضعتُ بعض الأقمشة على الأرض، وعلَّقتُ حقيبتي، وكان هُناك في

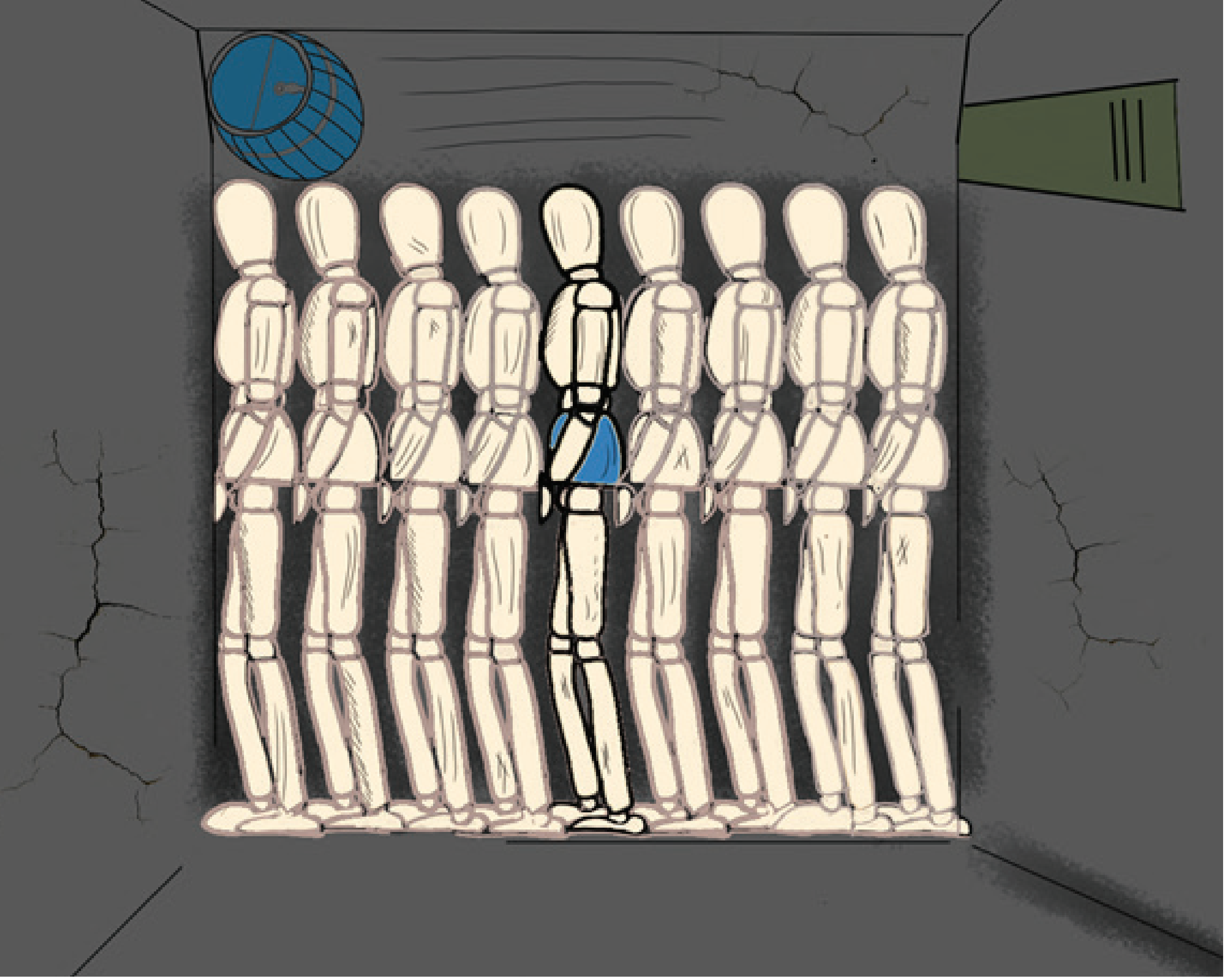

الركـن القريـب برميـلٌ كبيـر يحـوي مـاءً. شـاوَروا لـي وقالـوا لـي غسِّـل وجهـك وتوضَّـأ إن لـم تكـن صلَّيـت اليـوم. لـم أقـل لهـم أنـي لـم أُصلِّ منـذ ١١ يومًـا طيلـة وجـودي فـي زنزانـة الإيـراد. ضحكـوا عندمـا سـألتهم أيـن الحمـام؟ وسـألني أول مَـن توقَّـف عـن الضحـك منهـم: ثـقيلٌ أم خفيـف؟ ولأنِّـي لمَّـاح فهمـتُ أنـه يقصـد بـرازًا أم بـولًا. بعـد أن أجبتُـه قـال لـي: هنـاك أكيـاسٌ بلاسـتيكية، قِـف مكانـك وتبـوَّل فيهـا. كانـت أوّل مـرَّة قضيـبي يدخـل كيسًـا ليسـتريح فيـه، كانـت أحلامـه أكبـر مـن ذلـك بكثيـر، ولكـنَّ القـدر حكَـم عليـه. انتهيـتُ وربطـتُ الكيـس ووضعتُـه فـي عُلبةٍ وسـط إخـوته.

كنتُ بعد المغرب فصلَّيتُه، وصليتُ العشاء قبل أذانها، لي رخصةٌ بذلك، الرخصة تأتي للاستثنائيِّين، إن كنتَ شخصًا استثنائيًّا من قَبل، فحدِّثني ماذا فعلت، ولكن ليس الآن فأنا مُكوَّمٌ في غفلتي على جانبي، مُمتنٌّ للمصباح ذي الشعاع الأبيض لأن الضَّيَّ الأصفر في الإيراد كاد أن يُعميني. ودائمًا ما أشكر النوم والغفلة، وأتساءل دائمًا عندما أستيقظ، لماذا لا أظل نائمًا للأبد؟ النوم بمفهوم العقل هو موتٌ قصير، لماذا لا أموتُ أطوَل من ذلك؟

# صابونة

أمامـي ثمانيـةُ أبـواب ليسـت مُكـتملة، مقصوصـةٌ مـن أعلاهـا ومـن أسـفلها، لـثماني حمَّامـات، كلّهـا ممتلئـة. أرى بداخلهـا مـن الجسـد مـا فـوق الأعنـاق ومـا تحـت الرُّكَـب، علـيَّ الانتظـار حتـى تخـرج أول عُنـقٍ سـبقتني، أمامـي نصـف سـاعة فقـط، اسـتلفتُ صابونـةً حتـى أسـتحمّ، آمَـل ألا ينسـدَّ شـرجي هـذه المـرَّة، وأن تُسـاعدني أمعائـي فـي التخلُّـص مـن الفضـلات البائِـتة فـي جسـدي منـذ أربعـة أيـام. لقـد تعفَّـن خليـطٌ مـن الخبـز والفـول والحـلاوة والجبنـة، صـار بـرازًا شـديد السـواد. قبـل البارحـة حاولـت، عندمـا أخرجونـا مـن الإيـراد لإخـراج عفانـتِـنا، حاولـت لأكثـر مـن ربـع سـاعة مـن التفـاوض مـع أمعائـي، وكِـدتُ أفعلهـا حتـى جـاء القـدر وخبَّـط علـيَّ البـاب وفتحـه، فلـم يحـدث شـيء وكأن فضلاتي لا تنكشـف علـى الغريـب.

فاجأَنـي أحدهـم وهـو يُمشِّـط شـعره المُبلَّـل باسـتنكاره رؤيتـي لأول مـرَّة. «يـا سـيدي وأنـا أوّل مـرة أراك دعني آخـذ حمَّامك الآن... ولـنتعرَّف بعـد أن أصبـح نظيفًـا مثلـك»، هكـذا رددتُ علـى سـماجَته. وسـريعًا دون أمـرٍ، تحـرَّرتُ مـن الأقمشـة المُهروَلـة، أصبحـت عاريًـا تمامًـا، ونزلـت للتَّـقرفُـص، قدمـاي علـى حافَّـة مربَّـع الحـوض الأرضي، عتلـتُ بأمعائـي

أكثـر وأكثـر، هـذه آخـر فرصـة لـي. لـن أسـتطيع أن أنتظـر يومًـا آخـر دون التبــرُّز، وكلَّمـا مـرَّ الوقـت ألعن نفسـي مرَّة، وجسـدي مرَّة، سببــتُ الطعـام الـذي أكـلتُه أكثـر مـن مـرَّة، حتـى بـدأ بـرازي ينـزل فتاتًـا فـي بلاعـة الأرض، شـعرت بالارتيـاح وأنَّ هنـاك مسـعًى للتفـاؤل.

لا أعـرف كـم تبقَّـى مـن الوقـت، وقفـتُ فـظهَر عُنـقي لـمَن ينتـظرني، ناداني بالعجَلـة، جاوبتـه: أُبلِّــلُ جسـدي علـى السـريع وتأتـي أنـتَ. فـي سـرِّي امتـنَـنـتُ للرجـل الـذي وهبنـي الصابونـة، يبـدو أنـي امتلكـتُ مهـارة جديـدة وهـي اسـتغلال الفُـرص، لأنـي صبَّــنتُ جسـدي كامـلًا، حتـى بقايـا البـراز بيـن فخـذي وشـرجي أخرجتـه بــيدي. مع هـذا الفرح، كانــت تتنابنــي فزعــاتُ الخـوف عندمـا أُطبـق جفنـيَّ مـن الصابـون، لأنّـي أخـاف الحمامـات الغريبـة ذات الأسـقف العاليـة، أخـاف الظـلام مـع صـوت الميـاه، أخشـاها أكثـر مـن حرقـان عينـي. سـريعًا ارتديـتُ ملابسـي دون منشـفة لـجسدي وخرجـتُ مـع صفَّـارةٍ ونـداءٍ يُوحـي أن وقتَ التـريُّـض انــتـهى.

السـجين المُسـيَّر، رأيــتُه واقفًـا، يُمسـك بــيده عصـاه ويبـدأ بــهشِّ السـجناء إلـى جحورهـا، مـن الجميـل تنظيـم الإنسـان لأخيـه الإنسـان، نعـم أقـول إنسـانًا وسـيّد الإنسـان، لقـد نظَّفـتُ نفسـي وأخرجـتُ بـرازي المُعلَّـق بــيدي، وتحمَّمـتُ لــمُدة عشـر دقائـق كاملـة، كلّ هـذا يـدل علـى إنسـانيَّتي. وأنـا لسـت مُتعِبًا لأخـي الإنسـان، قـد دخلـت زنزانتـي بــهدوء. لـم أتهـنَّ بــمشاهدة هروَلـة النـاس إلـى زنازينهـم، لعلّـي أجـد الرجـل الـذي اكتشـف أنّـي سـجين جديـد.

# الشيطان

مـن خلفـي، صمَـت بـاب الزنزانـة بعـد أن أغلقـه صاحـب العصـا، علـى ما يبـدو أن جميـع الخِـراف قـد هُشُّـوا إلـى المحبـس دون مُشـكلة، بالطبـع يحـدث مشـاكل. سـمعت مَـن معـي، وقـد تكـوَّم علـى جنبـه وحكـى عـن يـومٍ مـا، فـي سـاعةٍ مـا، حـدث ضجيـج، ومِـن وراء أسـلاك الأبـواب الصغيـرة اجتمعـوا، ورأوا عِصيـان الشـيطان، يقولـون أنَّـه أبَـى أن تهـوى العصـا علـى جسـده، عندئـذٍ، نـادى المُسـير علـى السـجَّان لـيُخبره أن الشـيطان يعتـرض علـى حبـس نفسـه سـريعًا.

أخـذه السَّـجان إلـى الخـارج، ليلقـى عقابـه، ويُهـان إن تبقَّـى عنـده شـعورُ الإهانـة، وبـدلًا مِـن عصـا علـى جسـده، أصبحـتْ عِصِـيًّا وكفوفًـا علـى جسـده ووجهـه وقفـاه، أخـذ عقابـه يوميـن مـن الزمـان، وعـاد مـرةً أخـرى إلـى وظيفتـه وهـي سـجين، وعامـل نظافـة فـي فسـحته.

أَكمـل وقـال: دخـل الشـيطان السِّـجن لأنَّـه اغتـصـب أختَـه وقتلهـا، ويقضـي ٢٥ عامًـا لـزِناه مَحارمـه، ولذلـك يشمئِـزُّه مَـن حولـه، وحتـى إن لـم يفعـل فاحتماليّـة اضطهـاده موجـودةٌ أيضًـا لأنـه قبيـح الشـكل. عـن نفسـي بـدأتُ أخـاف النظـر إليـه، رأيتـه كثيـرًا فيمـا بعـد وهـو يقـف فـي

منتصف البلاط يجمع أكياس البِراز والبَوْل وفضلات الطعام لـيُخرجها إلى صناديقَ كبيرةٍ بالخارج، دائمًا يرتدي حمَّالتين زرقاوين، ووجهه مُجعَّدٌ بسواد، وما تبقَّى من أسنانه مُصفرّ، وأنفه كبيرة، واحمرار جفنيه يتساقط بدمٍ ناشف، وآذانه صغيرة وملفوفة بالعرض، وشعره خشِن قصير، بالفعل خِلقته قبيحة جدًّا. لو كنت مكانه لتصرَّفتُ أفضلَ من ذلك، لا أقصد عند الاغتصاب أو لملمة الأكياس، بل عند الضرب بالعصا. الضرب بالعصا من سجينٍ مِثلي أخفّ من الضرب المُبرح من السلطة، هي أخفّ ولكن للحقّ، هي أكثر إهانة. فهي السلطة من حقِّها أن تضرب، ولكن إن فكَّرتَ جيدًا فالمسيَّر مُعيَّنٌ من السلطة، بل هي مَن أعطته العصا، إذًا هو سلطة أصغر. مقياس إهانة الشيطان هنا مُحيِّرة.

اختلفتِ الأقاويل في مَن لقَّبه بالشيطان، ويُقال إنّه منذ صغره لُقِّب بذلك، تخيَّل عندما تبدأ حاسَّة السمع عندك في العمل، تعرف أنّك شيطان، على العموم هو يعيش حياته كلّها وكأنّه في شهر رمضان، يُقال أنّ الشياطين تُصفَّد في رمضان، والشيطان هُنا مُصفَّدٌ لِمُدة ثلاثمائة شهر بلُغة الرياضيات.

مع مرور الوقت، هل أُمسك العصا، وأهشُّ السجناء قريبًا، أحتاج وقتًا يُعطيني الأقدميَّة، لا أحد يعرفني الآن، أخاف أن تهوى العصا عليّ. أين أمي؟ أحنُّ إلى عصا أمي، وحضن أمي. وهي بالتأكيد تحِنُّ إلى تقبيل وجهي ــ وجهي الذي لم أره منذ فترة، بَشوش وأبيض، وعيناه عسَلِيَّتان، وأنفي مستقيم وليس ملفوفًا كالشَّقراوات، وأذني متوسِّطة، وأسناني بيضاء بها فراغات بسيطة. هل تغيَّر مِنِّي شيء، وخصوصًا بعد أن قصُّوا لي شعري.. أو ترهَّل خطوطًا على خدِّي؟

يـدي علـى خـدِّي، هـل سـأخرج قبيحًـا كالشـيطان، أحتـاج أن أرى نفسـي، المِرآة تهمُّنـي، هـل يريـد الشـيطان مـرآةً لـيرى نفسـه؟ أظـنُّ أنَّـه يكـره ذلـك، هـل كانـت تُناديـه أُختـه بالشـيطان؟ جـاء فـي بالـي أنَّ اغتصابـه لهـا نتيجـةَ أنَّ كلَّ بنـات حـواء غيـر محارِمـه لا ترضَـى أن تنظـر إليـه، أو تُعجـب بـه، أو تسـمح لـه أن يُقيـم علاقـةً معهـا وحتـى إن دفـع لهـا مـال قـارون ومُلـك نمـرود وأنهـار فرعـون عندمـا كانـت تجـري مـن تحـت أقدامـه قبـل أن تبتلعـه. الجمـال شـيءٌ مُفيـد للإنسـان، يُميِّـزه فـي حياتـه، جمـال وجـه الرجـل كجمـال جسـد المـرأة، كلاهمـا سـلطة ونفـوذ. الوجـه يُعبِّـر عـن الـروح، والجسـد يُعبِّـر عـن الجسـد.

أريـد أن أرى وجهـي وأمِّـي، السـجَّان لا يمنعنـي مـن رؤيـة أمِّـي، فــهي فـي خـلال أيـامٍ سـتأتي. أمـا وجهـي، فــهو لا يريدُنـا أن نتقابـل، يريدنـا ألا نتذكَّـر بعضنـا البعـض، علـى العمـوم إن نسـيتُ شـكلي سـتذكرني أمِّـي، سـأرى وجهـي فـي عينيهـا، أو حتـى بإمكانـي رؤيتـي فـي عيـن أيِّ سـجين معـيَ الآن. لا... أمِّـي سـتــزورني بالنهـار، سـتكون ملامحـي أفضـل فـي عينَيهـا.

الآن نسـيت، عجلـة الأيـام دارت، لا أعـدُّ دورانهـا، أوقـاتٌ تـدور بـبُطءٍ وأوقـاتٌ لا، تعـوَّدت علـى طريقـة الحيـاة، أصبـح جسـدي أكثـر طَوعًـا، وأمســى عقلــي يفكــر كثيــرًا، حياتــي فــي مســاحتي الصغيــرة، أردت التخلُّـص منهـا كثيـرًا، ونجحـت. حياتـي ضيقـة، لا أسـتطيع التوسُّـع فـي مسـاحتي، حفظـتُ أسـماء رجـال السُّـلطة، هنـا يُنادونهـم بأسـمائهم، ليـس لهـم أرقـامٌ مِثلنـا.

# الموت

هـذا اليـوم الثالـث... «كُـفَّ عـن التخطيـط ونَــفِّذ، الأمـر بسـيط، افعـل مثلمـا سـمعتَ مـن الآخريـن كيـف فعلـوا»، هُـم فكُّـوا شـريط القمـاش اللّاصـق علـى أطـراف الغطـاء، وربطـوه فـي أيِّ شـيء أعلـى مـن الجسـد وثابـت فـي الحائـط، ربمـا ربطـوه بيـن حديـدِ هـذا الشـباك الصغيـر... «افعلهـا يـا جبـان»، قلـتُ لـنفسي.

اليـوم الخامـس، بقــيَ لـي يومـان فقـط، اليـوم السـابع سـأخرج مـن زنزانـة التأديـب الانفراديَّـة وأُعـاود زنزانــتي وسـط أجسـاد السـجناء. ربمـا هُـم فَرِحـون الآن لأنـي تركـتُ لهـم ٣٠ سـم يسـيحون فيـه أسـبوعًا كاملًا، هـذا يعنـي أنَّ موتـي سيُريحهم، تخيَّـل كلَّمـا مـات مِنَّـا أحـدٌ أراح الآخـر، ولكـنَّ تلـك الراحـة مؤقّتـة ومسـلوبة، مـا يُدريهـم أنَّ السـلطة لا تأتــي لهـم بأجسـادٍ جديـدة وأكثـر سـمنةً مِمَّـن ماتـوا ليُضيِّــقوا عليهـم المسـاحة مـن جديـد، لكـنَّ المـوت راحـة أبديَّـة، خصوصًـا أنّنـا مظلومـون، فسيُدخلنا اللّـه الجنّـة، لـن يرضـى لنـا اللّـه العـذاب مرَّتَيْـن، لأنّـي الآن بالمنطـق الدينـيّ إنسـانٌ مظلـوم، وبالإنسـاني حيـوانٌ مظلـوم، وبمنطـق السـلطة جسـدٌ مُسـتباح، هـذا يعنـي أنَّ المـوت شـجاعةٌ يتبعهـا راحـة، ولكـن مـاذا لـو فشـلتُ فـي المـوت.

خـطرتْ لـي قصـة مَـن فشـل قبلـي، أخـذوه وعاقبـوه عقابًـا مُضاعفًـا، وضعـوه فـي عنبـرٍ آخـر، فـي زنزانـة مُمتـلئة مـع سـجناء كُثـر، ووصُّـوا عليـه نوبتـجي هـذه الزنزانـة أن يُريَـه مـذاق الويـل، وألا يُريـه النـوم، فـكان يُضـرب مـن السـجناء، ويعمـل مكانهـم فـي النظافـة، وكانـت أعينهـم تُراقبـه حتـى إن حـاول التخلُّـص مـن حياتـه مَنَعـوه.

منطـق السـلطة هنـا أنّهـا لا تسـمح بالعيـش ولا تسـمح بالمـوت أيضًـا، هـي تريـد الانضبـاط الحيوانـيّ للإنسـان، أي أن يعيـش عيشـة الحيـوان بـضمير الإنسـان، وهـذه فـوق طاقتـي، ولكـنَّ حَسْـمَ أمـر شـعور الجسـد صعـب.

لـم أكـن فـي موقفـي هـذا لـو أنَّ صاحـب العصـا لـم ينعـت أمـي بالزانيـة، ويُسـمِّيني بـ«الخَـوَل»، ردَّدهـا لـي أكثـر مـن مـرَّة، ومـع كلِّ مـرَّة كان يدفعنـي بـعَصاه دون سـبب. فـي مـرَّة مـن المـرات وقبـل غلـق العنبـر، فتـح البـاب علينـا ليتأكَّـد مـن تعـداد الأجسـاد، لـيطمئنّ أنْ لا أحـد هـرب ولا أحـد مـات، لـم أنتبـه لـه، ولـم أقـل رقمـي فـي دوري، استَـقصَدني بعـد ذلـك. تخيَّـلَ أنـي لا أبالـي لـه عنـد التأكّـد مـن بقائنـا داخـل السـجن، ومـن وقتهـا عندمـا يرانـي ينعتنـي بـ«الخَـوَل». فـي مـرَّةٍ دفعتُـه ليبتعـد عنـي، وبعـد أخـذٍ وردّ جـاء رجـل السـلطة وحكَـم أنّـي غيـر مُنضبـط، ويجـب علـيّ الذهـاب أسـبوعًا كامـلًا إلـى زنزانـة التأديـب.

«لـن أفشـل»، قلـت. سأتـفاءل بالمـوت لأجـدَه، مـا تبقَّـى لـي سـوى سـاعات الليـل، وسـيأتي صبـاح اليـوم الثامـن أيُّ رجـلٍ منهـم لـيأخذني مـن هنـا، لـن تتكـرَّر هـذه الفرصـة. أخـذتُ بالعزيمـة، وبـدأتُ بــفكِّ سـير طـرف القمـاش، هـو قـوي وطويـل، يُمكننـي الآن ربطـه وتـثبيته

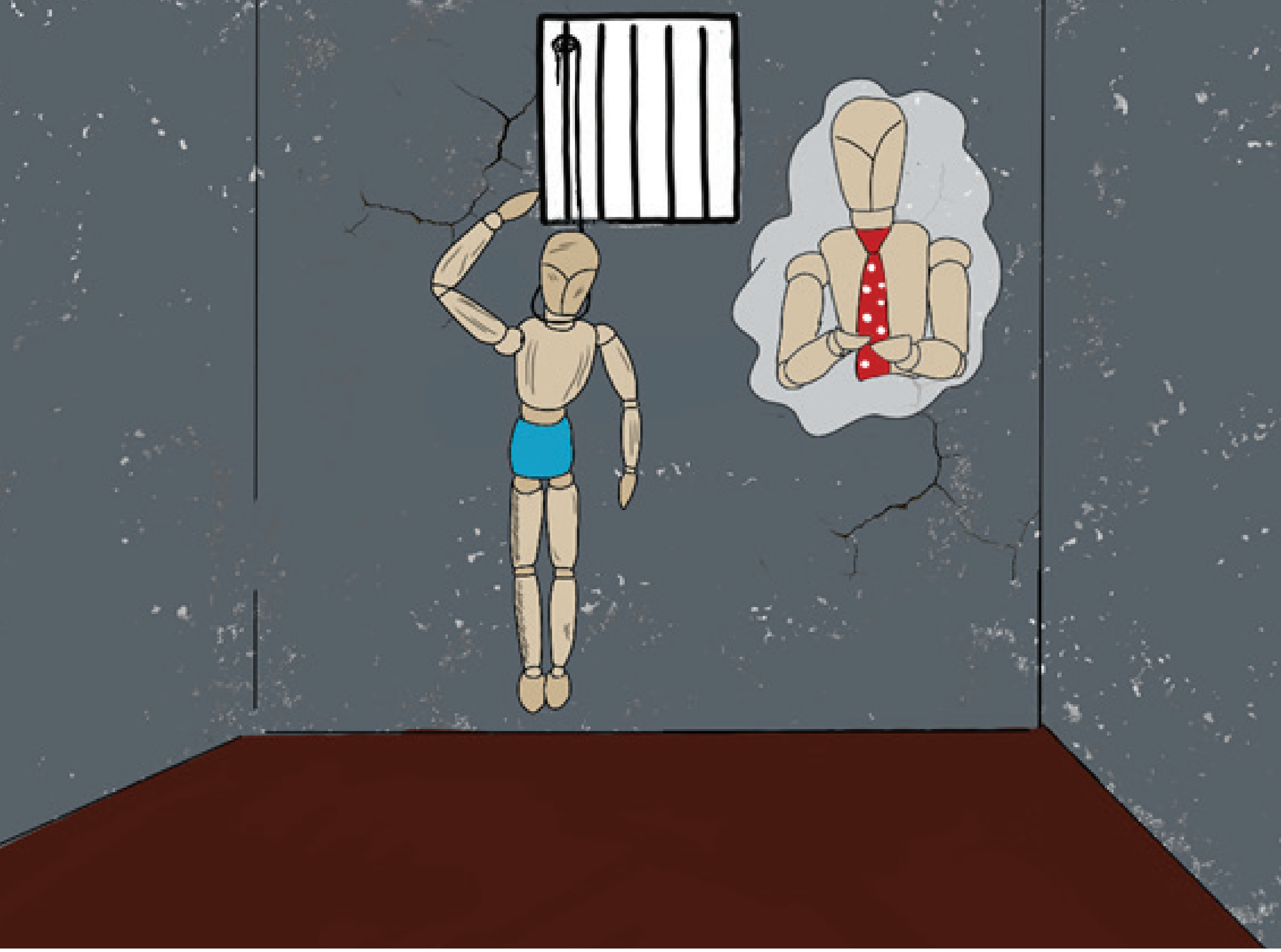

بسهولة. بدأتُ أربط عقدةً وأقيس دائرةً صغيرةَ الحجم تليق بعُنقي، توقَّفتُ لأتذكّر صديقي الذي كان يلفُّ لي ربطة العنق على بدلتي يوم فرح أخي منذ ثلاث سنوات، من بعدها لم ألفَّ شيئًا عليه.

سرحتُ أيضًا. سيدخل عليَّ رجل السلطة صباحًا ليَلقَى الحبل ملفوفًا على عُنقي، ولأن جسدي الآن لم يَعد مِلكًا للسلطة، فلن يَجُرَّني ولن يضرَبني، سيجري على سُلطته ليُخبرها، ويأتون جميعهم مسرعين ليَروني، يُحاولون هزِّي حتى أفيق، وأنا سأكون في عالمٍ آخر، جسدي هنا انتهى دوره، انتقل هنا من سلطتهم إلى سلطة

جهـةِ التحقيـق الأولـى. والغريـب هنـا أنَّ جسـدي يتنقَّـل مـن سـلطة إلـى سـلطة حتـى بعـد موتـي، سـيتصلون بهـم يقولـون لهـم الجسـد رقـم ٧٣٤ مـات، لـيأتوا هـم بـدورهم لـيفحصوا الجسـد، ويكتبـوا تقريرًا أنـي مـتُّ مُنتحِـرًا وهـذا صحيـح، لـم أُعـذَّب مـن قِبَـلِ السـلطة وهـذه هـي المشـكلة التـي جعلتنـي أُنهـي حياة جسـدي، هـم يُعذِّبون بـمقدار الحيـاة الميتـة. سـيُغلقون جميـع العنابـر، لـن تخـرج النسـاء اليـوم ولا الرجـال، سـتبقى فضلاتهـم فـي بطونهـم، ولـن يسـتحمُّوا، تخيَّـلْ أنَّ شـابًّا ضاجـع فتـاة طيلـة ليلِـه فـي حُلمـه واستَمنَـى وينتـظر حتـى يخـرج للاغتـسال، فـموتي يُخرِّب عليـه نظافتـه ويُبقيـه نجسًـا.

بعـد أن تـنـتـهيَ إجـراءات دفـن جسـدي سـيتَّصلون بـأمِّي ويقولـون لها علـى مـكان اسـتلام جسـد ابنهـا لـدَفنه. بالطَّبـع سـتبكي وتُجعِّـر، مـات شـابّها الجميـل الـذي كان يـرى وجهَـه فـي مرايـا عَيْنَيهـا كلّ أسـبوعَين، هـذا أيضًـا سأفتـقده، حُضنهـا كان دافئًـا وصادقًـا وكأنّـه يأخـذ همومـي ويمشـي، ولكـنَّ الهمـوم كانـت تتجـدَّد تلقائيًّـا، لـذا هـي سـتتعب مـرةً أخيـرة، يـوم اسـتلام أعضائـي التـي لا تـتـنفَّس، يـوم دفنـي بالكاد سـيكون شـاقًّا، ولكنّـه يـومٌ واحـد. التخلّـص مـن حركـة هـذا الجسـد سـيُريح جسـد أمِّـي، حـرامٌ علـيَّ أن يأتـيَني جسـدها الشـايخ المُكسَّـر، وينتظرني بالسـاعات مرَّتيـن فـي الشـهر.

لـم أُودِّع راقصتـي الفاتنـة، هـي صاحبـة فضـلٍ علـيّ، كانـت تأتينـي دون تكلُّـف. بـدأت التخاريـف تُشـوِّش عقلـي. الآن... يجـب أن أدعـو اللـه، وأقـرأ مـا يغفـر لـي عنـد اللقـاء، هـذا اعتقـادي، أفضـل لـي مـن ثَـدي الفاتنـة البـارز، هـي آخـر اللحظـات، كلُّ شـيء جاهـز الآن، حتـى رقبتـي النحيفـة، تمكَّـن منهـا الحبـل جيـدًا وانتـهى الأمـر.

# الختـم

لـم أَوعَ عليهـا، نازيَّـة الألمـان ضـد اليهـود، أقصـد أنّـي تذكّرتهـا فـي أفـلام هوليـوود، كانـوا يأمرونهـم بالركـض فـي صفـوفٍ طويلـة وعريضـة، حتـى يتـمّ توزيعهـم، جـزء يذهـب إلـى الحـرق، وجـزءٌ للمسـاعدة فـي حـرق الجـزء الـذي ذهـب، وجـزء للعمـل حتـى يأتـي دورهـم فـي الحـرق. لا مانـع عنـدي فـي الركـض... لـديَّ مانـع فـي الحـرق بـلا شـك.

كنـت فـي منتصـف صـفٍّ عريـض، نلبـس جميعًـا البِـدل الزرقـاء، يمكننـا الوقـوف والانتظـار، لكـن هـم يريـدون أن نبقـى راكضيـن أمامهـم، حتـى لا تنظـر رؤوسـهم إلينـا بالتسـاوي عندمـا يأمرونَنـا، لأننـا استـثـنائيّون، ارتكبنا الأخطـاء فـجِئنا إلـى هنـا كوننـا فئـةً ضـارَّةً لا تسـتحق العيـش بالخـارج ولا المـوت بالداخـل، نبقـى للتنفّـس، تـبًّا للطعـام الـذي يُبقينـا نتنفّس.
بـدأت أفكّـر ألّا آكل هـذا الطعـام مـرةً أخـرى، يُمكننـي المـوت إن فعلتُ هـذا، أقصـد يمكننـي المـوت مـرةً أخـرى، خِطّـةٌ جيـدة، ومـا أفضـل مـن خطّـةٍ تجعلنـي خـارج الأسـوار، هـل يُمكننـي الهـرب؟ هـذا مُسـتحيل، صـوت عسـاكر البُـرج يصيـح طيلـة الليـل، مراقبـةٌ شـديدة، لمـاذا لا يذهـب هـذا العسـكري إلـى بيـته لـينام، هـل أحـد يُراقبـه؟ أظُـنُّ أنـه يريـد الهـرب ولا يسـتطيع مِثلـي، لـو كنـتُ مكانـه لـهَربت.

سجيـن. هكـذا خُتـم علـى رسـغي الأيمـن. لا أحتـاج لـهذه التذكِـرة المكتوبـة. هـو يعـرف فـي أيِّ شـيء يُفكِّـر السـجين، لذلـك يُذكِّـره أنّـه لا مفـرَّ مـن السـلطة، يقـول أنـت دائمًـا سجين تحـت المراقبـة، لـن تسـتطيع أن تلبـس ثيابًـا مُختلفـة، وتتنكَّـر وتهـرب خـلال زيارتـك، وأنـا أعـرف هـذا، كنـت أفكّـر فـي ذلـك مـن بـاب تسـلية الوقـت حتـى يعدُّونـا وندخـل إلـى القفـص. تذكـرتُ أيضًـا أنّـي رأيـتُ القفـص فـي معسـكرات النازيَّـة بالإضافـة إلـى حديقـة الحيـوان والمُصارعـة الحـرَّة، وهـذا سيُحيِّـرني بيـن تصنيفـي، مـن المؤكّـد أنـي لسـت مُصارعًـا!

مـا أجمـل القفَـص، تقـف فيـه أمِّـي، الآن أراهـا ولا ترانـي، وعندمـا رأتنـي ضمَّتنـي إلـى حضنهـا، سـألتني عنِّـي، وجلسـنا علـى مقعـدٍ ضيِّـقٍ لـكثرة الأجسـاد، المهـم أنّنـا جلسـنا. القفـص فـي جوانبـه الأربعـة مقاعـد، ومَـن لـم يلحـق مكانًـا يتربّـعُ علـى الأرض، وبيـن كلّ هـذا يتسـكَّع مِـن حولنـا خمسـة رجـالٍ للسـلطة بـحدٍّ أدنـى للعـدد، منهـم مَـن يُريـد سـماع مـا نقـول، ومنهـم مَـن يُحلِـق النظـر فـي أجسـاد النسـاء الشـابَّات، ومنهـم مَـن هـو رقيـبٌ للأخـلاق.

أجبـتُ أمِّـي أنّـي بـخير، وأكثـرت مِـن خيرهـا، عندمـا رأيـتُ كيسًـا بـجانبها بـه طعـام وملابـس، حملَتْـه لـي وحكَـتْ فـي أسَـى أنَّ رجـال التفـتيش أخـذوا منهـا الفاكهـة، وبعـض الملابـس بـحُجَّة أن الفاكهـة ممنوعـةُ الدخـول، والملابـس بهـا علامـة التصنيـع، يبـدو أنَّ تـذوُّقَ الفاكهـة ممنـوعٌ للاسـتـثـنائيِّـين، تخـاف السـلطة أن نـأكلَ مثلهـا، وأن تمتلـئ أجسـادنا بالطعـام الـذي يَمتلـئ بـه أجسـادهم، نـأكل الطعـام الـذي يجعلنـا نتنـفَّس، أمّـا الاسـتمتاع والتـذوُّقَ فـليس وقـته.

كـرَّرتْ أمِّـي سـؤالها عــن حالــي ومعيشــتي كثيــرًا وأنــا أكــرِّر الإجابـة المُعتـادة، بينمـا تـزوغ عينـي بيـن الكلمـة والكلمـة وتسـتـقرُّ على أجسـاد الشـابَّات، لـم أر النسـاء منـذ فتـرة كبيـرة، حاجتــي البيولوجيَّـة قـادت عينـيّ إلـى مفاتنهـنّ. ضـجَّ صـراخ داخـل القفـص، وقفنـا لـنرى، سُـحِبَ سـجين مـن جانـب زوجتـه بالقـوة، سـبَّه الضابـط كثيـرًا، جُـرَّ إلـى الخـارج بواسـطة اثنيـن مـن رجـال التفتيـش، أحدهمـا سـكَعه علـى وجهـه. صـوت صـراخ المـرأة مـا زال يُعبِّـر عـن تعاطفهـا مـع زوجهـا، بـسـبب ذلـك انتهت الزيـارة، ودَّعـتُ أمِّـي. عندمـا رأيـتُ دموعهـا تذكـرتُ أن أرى وجهـي فـي مرايـا عينَيْهـا، لـم أرنـي جيـدًا، فـي عقـل بالـي تُعـوَّض المـرة القادمـة.

مساءً، تربَّعنا جميعًا، لـيُحكى لنا سبب صراخ اليوم في القفص، كان واحـدٌ مِنَّـا يظـنُّ أنَّ السـجين قبَّـل زوجتـه، أو لاصَـق جسـدها بـطريقة حميميَّـة.

لكـن قـال مَـن كان جالسًـا بـجانبه، أنَّـه عـرف أنَّ زوجتـه كانـت تبكـي، وسـبب البـكاء أنها شـاوَرتْ لـه علـى أحد رجـال التفتيـش الـذي تعاطـف مـع جمالهـا وأخـذ يُغازلهـا حتـى وصـل حالـه إلـى حَـكِّ يـده على جسـدها تحديـدًا فـي فخذهـا، فــبعدتْ عنـه مُنتــبهة، فقلَـب لهـا الطعـام علـى الأرض، فـلملمته وظلَّـتْ تبكـي، بـسبب بكائهـا، زوجهـا الآن فـي زنزانـة التأديـب. كانـت تسـتطيع أن تبكـي فـي البيـت، وألّا يسـوء حـال زوجهـا، ولكـن هـي لا تعـرف أن لا حـقَّ لـزوجها هنـا، لا تـراه وهـو يركـض، ولا تراه وهـو يقضـي حاجتـه فـي الكِيـس، ولا ترى هـشَّــته بواسـطة عصا السـجين كلَّ يـوم. مِـن حسـن حظّـي أنَّ أختـي لا تأتـي لـزيارتي، ربمـا يُعجـب بهـا أحـد المُفتشـين، وإن بكـتْ... ذهبـتُ أنـا إلـى التأديـب. هـو يتحـرَّش وهي تبكـي وأذهـب أنا إلى التأديب. «قِسـمةٌ ضِيـزَى»، أجسـادُ ذوينا مُسـتباحة للسـلطة أيضًـا، نحـن للتحكّـم وهُـمْ للشَّـهوة.

# الفلَـكة

تــمَّ تجميـع عـددٍ كبيـر مـن السـجناء، حوالي خمسـين سـجينًا، ومن حسـن حظِّـي كنـتُ مـن بينهـم، ليـس للحـرق، نحـن مُستـثــنون نعـم، ولكـن مِـن الحيـاة ومِـن المـوت. اليهـود كانـوا مـن الحيـاة فقـط، ولذلـك حُـرق عـددٌ كبيـر منهـم. هنـاك عـرضٌ سـينمائي يجـب أن نـراه، ركضنـا كالعـادة، لـنَرى جميعًـا مشـهدًا لـن تـراه أنـت إلّا إذا كنـت مـن أبنـاء العصـور الوسـطى فـي أوروبـا، أو شـاهدتَ أفلامًـا تتحـدَّث عـن العقـاب فـي العصـور الوسـطى، أو كنـت سـجينًا مـن قَبـل، وهـذا احتمـالٌ قــوي... أو سـتكون سـجينًا مـن بعد وهذه بُشـرى مِنِّــي!

عندمـا حـدث ضجيـجٌ البارحـة، عرفنـا أنَّ السـلطة تدخَّلـت وفكَّـت شِـجار السـجناء معًــا دون تفاصيــل عــن هــذا الشِّـجار، كان فــي عِلمنــا أنّــه حـدثٌ يتكـرر، وينتــهي بــعقاب السـجناء بأسـبوع مـن التأديـب علـى بعـض الكفـوف التـي تخـتم الوجـه والقــفا، وحرمـان مـن الزيـارات، أمّـا الآن فالعقـاب تاريخـيٌّ علـى الطـراز الفرنسـيّ القديـم: اثــنان مُفَلَّــكان، أيْ مربوطـان علـى عمـودٍ إسمنتــيٍّ رمـاديٍّ صلـب، عرايـا عـدا القطعـة الداخليّـة السُّـفلى مـن الأقمشـة، الأوّل السـجين صاحـب العصا الذي يهـشُّ الخـراف، والثانـي شـابٌّ لا أعرفـه يبـدو ثلاثينـيًّا، فـي وسـط حشـدٍ مـن

رجال السلطة، انهالت عليهما قطعةٌ مطَّاطيّة سوداء من يدٍ يُمنى لا تَكِدُّ ولا ترحم. الجلَّاد كان عملاقًا للغاية، عرفتُ بعدها أنّه رجل السلطة في مهمّة عقاب السجناء، ينقص هذا المشهد رجل دين ليعدَّ السيئات والحسنات، ونحن السجناء نتفرَّج بلا شعور، لم نحزن ولم نفرح، ربما يفرح مَن في قلبه بغضاء من السَّجين، كالشيطان مثلًا.

لم أرَ ظَهر السجينَيْن جيدًا، كنت أريد إجابة سؤال: هل يترك السَّوط خطًّا أحمر، لرُبما أكون مكانهما يومًا من الأيام، ولكن بعد ذلك، تغاضيتُ عن أمر المعرفة، لن أكون مُتَفلِّكًا.

يُقال أن سجينًا ثالثًا هو الذي أبلغ رجلًا من السلطة عن فعلتهما، لم أكن أعرف الفعلة، لماذا لا يكبتان شهوتهما، وأي شهوة، شهوة الرجل للرجل.

بعد أن هُشَّ الخراف داخل الزنازين، بقيَ سجين واحد ليُضاجعه صاحب العصا من الخلف في حمَّام وسط ثماني حمامات، ولكن فُتح عليهما الباب وأُخذا وسط ضجيج دوًّى، يُحكى أنه مِثليّ، يشتهي الرجال. يُقال أنَّه لم يكن كذلك، ولكنه تعوَّد على لمس مؤخَّرات الرجال عوضًا عن نسيانه مؤخَّرات النساء. بعد أن نال عقابه، ونُقل من السجن نهائيًّا، أي نُفيَ إلى سجنٍ آخر، سمعنا أنَّه كان يُسهِّل على السجناء معيشتهم مقابل أن يتركوه يلمس أجسادهم في أوقاتٍ عِدَّة.

قلتُ في بالي مُستَتِرًا: يجب أن تتحكَّم السلطة في شهوات سجنائها حتى لا يفعلوا فِعلتهم، لو سُرِّبت تلك الحادثة، ماذا يُقال؟ أنَّ السِّجْنَ

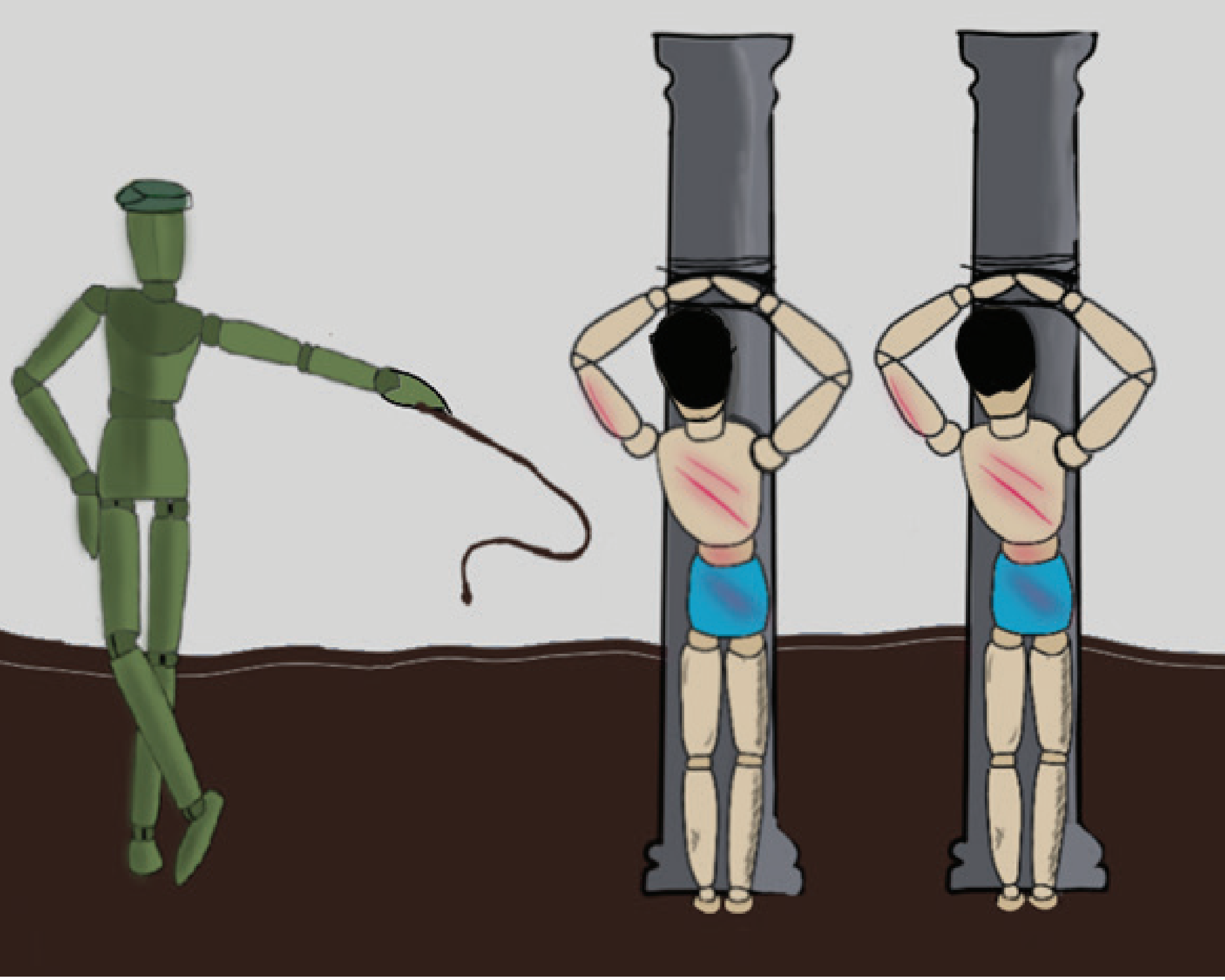

الفُلانِـيَّ سجناؤه يُضاجع بعضهم بعضًا، هـذه سـقطة أخلاقيّـة فـي حـقّ رجـال السـلطة، وهـم ذوو الأخـلاق كلِّهـا، والسـجن تهذيـبٌ وإصـلاحٌ وأجسـادٌ وشـهوات. لا بـد أن يعطونـا شـيئًا يُجمِّـد حيواناتنـا المنوِيَّـة، بالـكاد عمليّـات الإخصـاء الجراحيَّـة ستُكـلفهم كثيـرًا، شـرابٌ مثـلًا كـزيت الخـروع ولكـن أشـدَّ مفعـولًا، يُسـاعدنا علـى عـدم إيقـاظ قُضُـبنا وإبقائها مَكشوشـة لحيـن الخـروج مـن السـجن، وحتـى لا تتمـدَّد وتأخـذ مسـاحةً نحتاجهـا للعيـش سـويًّا. تخيَّـلْ رجـلًا قضيبـه مكشـوش لـمدة ٢٥ عامًـا، شـيء مُريـح، لكنـه سـيكون حزينًـا عندمـا يتعـرَّى ويـراه هكـذا. هـو رمـز رجولتـه ولذلـك يجـب أن يـراه ناضجًـا دائمًـا.

بيضاء في الأصل

# الراقـصة

حاولـت أن تهـرب مِنّـي، وكأنهـا تغرينـي أكثـر، كـأيِّ امـرأة تحـب أن يتشـوَّق إليهـا حبيبُهـا، خصوصًـا إن كانـت امـرأة فاتنـة فـي وسَـطِها الفنِّـي، وفـي وسطِها الجسـدي. هـي فنانـةٌ اسـتعراضيَّة، راقصـةٌ بالمعنى الشـرقي، وجميعنـا يعـرف أن الراقصـات يُحافـظن علـى قوَامـة وجاذبيَّـة أجسـادِهنّ، هــي أكبـر مِنِّــي عُمـرًا، ولا سـابق معرفـة ولكـنَّ الحـب والاشـتياق والشـهوة جمعتنـا، لـم أكـن أحلـم أن المـرأة التـي لـم أرَهـا إلّا مـن خـلال الشاشـات وأوراق الجرائـد، سـأجري وراءهـا وأداعبهـا فـي رقبتــها وأُقــبِّلها وأشـياء أخـرى... ولكنِّـي حلمـتُ بالفعـل!

هنـا الغفـوة، قضيــبي واقـفٌ ولكنَّـه ابتــلَّ مـن استِمنائه، لـم أسـتطع التحـرُّك، كنّـا صباحًـا والجميـع نِيـام، ولا مجـال حتـى للتقلُّـب يمينًـا أو يسـارًا. مـرَّ الوقـت وغفـوتُ مـرةً أخـرى، ليفتـح صاحـب العصـا الجديـد البـابَ لنـا ونخـرج. هـو رجـلٌ طويـل وضخـم جـاء لنـا مـن عنبـرٍ آخـر، يهـشُّ النـاس بــهدوء، ولكنّـه إلـى الآن لـم يُضاجـع أحـدًا مـن الخلـف، مِـن فضـل القـدر علـيَّ أنـي لحقـتُ حمَّامًـا فارغًـا، وهـو الحمـام رقـم ثمانيـة، دخلـتُ، وقرفصـتُ للتخلـص مـن فضلاتـي العفِنـة مـن ليلـة أمـس، لـم أعتـلَّ كثيـرًا، جسـدي تعـوَّد علـى ميعـاد التبـرز، تلقائيًّـا وسـط

ضجيج السجناء تقوم العمليّة بنجاح. وقفتُ وخلعت ملابسي كلّها، لم يكن أمامي أحد ينتظرني وراء الباب، عندما رأيتُ رمز رجولتي ناهضًا، تذكَّرت ليلة البارحة، بكلّ ما فيها، ولا يوجد فيها سوى جسد الفاتنة الذي أعطاني مُتعةً جِنسية كبيرة، خيالي ذهب إليها مرّة أخرى، دون نوم، جسدي يحتاج جسدها حتى يخرج ما بداخله. في خلال دقيقتين كنت أفرغتُ بيَميني مرةً أخرى، تطايرتْ منوِياتي على الحائط والأرض، لا يوجد جسدٌ سوى جسدي، ولا شهوة سوى شهوتي، الراقصة في بيتها أو حتى في أحضان مَن اختاره القدر. صوت المياه بدأ يُذكرني بالوقت، اغتسلتُ بعدها جيدًا، وارتديت ملابسي ثم خرجت، ليدخل مَن هو في الانتظار.

ماذا لو؟ دخل عليَّ أحدٌ ورآني. سؤال يراوِدني خِفيَّة؟ يُخيفني أحيانًا، ما عقوبة استِمنائي؟ الجَلد؟ ولكن لماذا يُعاقبونني؟ أنا أضاجع الخيال، لا أضاجع شخصًا آخر، ربما يُفلِّكوني على عمودٍ رماديٍّ خَرْسانيّ صلب، والعمود الآخر يظلُّ فارغًا. ويقولون للجماهير أنَّ العمود الثاني مفلوكٌ فيه خيالي لأني ضاجعتُه، أو يسألوني مَن ضاجعتَ في خيالك؟ فأجيب: الفنّانة الفلانيَّة. فيأتوا بصورة لجسدها ويلصقونها على العمود الآخر، ويبدأوا بجلدنا، ويتسرَّب الخبر في الصحافة والإعلام، سجينٌ يضاجع الفنّانة العِلَّانيَّة في خياله، فما موقف الفنانة عندئذٍ. أعتقد أن جميع الشباب هنا يستمنون، أظنُّ أن مَنوِيّاتنا تخرج على الفنّانة الواحدة في اليوم الواحد، يجب أن نُصارح بعضنا، أن نُجدوِل راقصاتنا حتى لا نُضاجع امرأة واحدة جميعًا.

لم أكن أعرف أنَّ هذا الجسد عَقبةٌ لي، يبدأ بإذلالي عندما يقع

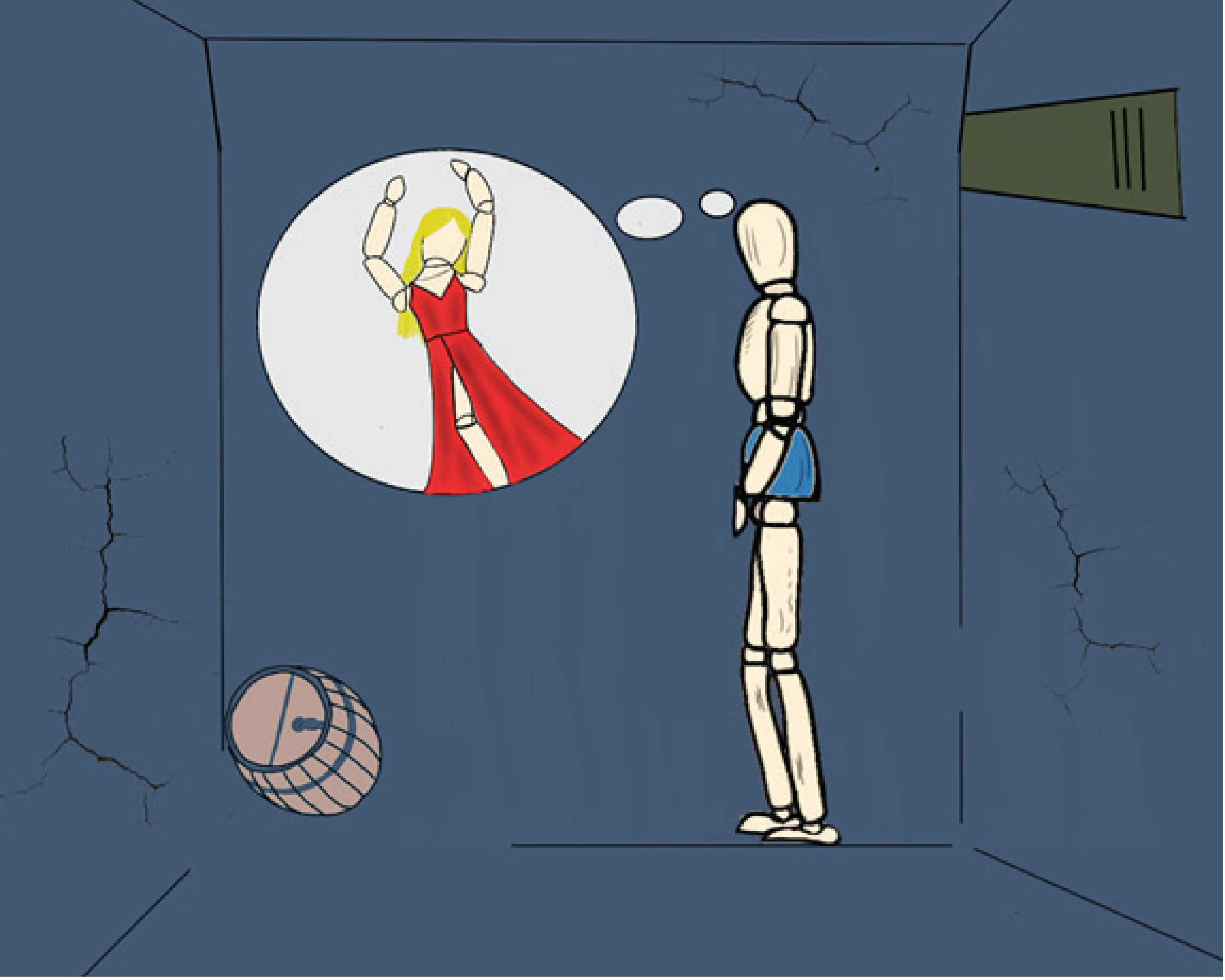

في أيدي السلطة العقابيَّة، سبب ألمي وحقارتي وحزني وضيقي وانضباطي وأسري وتحكمهم فيَّ.

لحظة. ماذا تفعل النساء في العنبر المجاور لنا، هن شابَّات يحتجنَ لما نحتاجه نحن الرجال، المأساة بالكاد واحدة، هل يتحرشنَ ببعضهنّ، رأيت ذلك في جميع الأفلام السينمائيَّة التي جسَّدتْ سجون النساء، رأيتهن يلفِظنَ السِّباب بلا حرج، ويرقصن ويستعرضن أجسادهنّ، هل يُطبَّق عليهن عقاب السجن عند الوقوع في فخِّ المِثليَّة مع بعضهنّ. ربما سأعرف يومًا، بقيَ لي في السجن

شـهور طويلـة، ولـم أحقـق خُطَّتـي لــنيل منصـبٍ أسـتطيع مـن خلالـه أن أخـرج مـن هـذا العنبـر وأرى السـجينات علـى مسـافةٍ أقـرب، ربما تُــتاح لـي الفرصـة للتعـرُّف علـى إحداهــن، وتحكـي لـي كيـف يعيـش النسـاء داخـل عنابرهــنّ.

# بُـرج سـبـعة

سـألتُه: أيـن هـو اليـوم؟ يـا عـمّ العسـكري. ودندنـتُ: يـا حارسـي وسـط لِيلـي، ويـا مراقبـي فـي نهـاري، موتـك هـو حياتـي، أتمنـى أن تمـوت! أتعـرف؟ أسـتطيع أيضًـا أن أقـول أنـك صديقـي، وتُشـبهني كثيـرًا فـي قَيـدي، أيْ نعـم أنـت صديـقٌ مُزعـج، لا أقصـد صديقًـا مـن بـاب الْتِــقاء الـودّ، بـل مـن شـبَّاك بُرجـك. أنـت مُقـيَّد ولكـن بـزِيٍّ ميـريّ سـلطويّ، وأنـا صامـت وأنـت مُزعـج، تصيـح حتـى الصبـاح عكـس الديـك، يـا أخـي دعنـي أفكـر سـاعةً كاملـةً دون صوتـك، أو حتـى أنـام بعيـدًا عـن سيمفونيّاتك، أخـذتُ ليـالٍ كثيـرة حتـى أعـرف أنّـك تقول: «بُـــرج سَـبعة تَــمام»، وأوقات تـتـعالى بالقافية «مَحَدِّشْ هِنا بِـيْــنَام».

أريـد أن أتعـرَّف علـى شـعوره وهـو ينـادي، وهـو ينتظـر حتّـى ينـادي، نحـن فـي أول الليـل حتمًـا سأسـمعه، هـو ليـس شـخصًا واحـدًا مـن الأسـاس، هـو يتبـدَّل باسـتمرار، وأنـا لا أعـرف سـوى صـوت يقَظـتِه.

تأمَّلـتُ، ورأيـت نفسـي أفضـل شـعورًا ممَّـن حولـي مـن عجائـز الأجسـاد، هـم يصمتـون كثيـرًا، وأحيانًـا يبكـون، الجسـد يَهلـك وراء الحديـد، يتـآكل، ويُعفَّـن دون شـمسٍ وهـواء، والوحشـة لـلأرواح الطيبـة تُدبِـل الأرواح،

وهـذه الليلـة قاسـية، حتـى فـي رائحـة أنفاسـها، فـمُنذ سـاعتين، لـم يسـتطع بـراز أحدهـم أن ينتظـر للصباح داخـل أمعائـه، فـقَرفص الرجُـل بـجوار البرميـل، هـو عجـوزٌ سِتِّينـيٌّ أتـى بكيـسٍ أسـود، وغطَّـى بـه علبةً صغيـرة، ووضـع العلبـة تحـت شَـرجه، لعـلَّ بِـرازه يدخـل دون خطـأ، صـوت عتالتـه كان خفيفًـا، عنـده إسـهال، انتهـى ولـفَّ الكيـس بأصابعـه ووضعـه مـع أكيـاس البـول المُختلطـة، لـم يحـدث أي خطـأ سـوى أنّنـا هنـا. عرفـتُ هنـا قيمـة الجسـد بــقدر مـا عرفـت أنّـه سـبب غُلبِنـا، ولكنْ جسـد عن جسـد يَفـرق في كـمِّ الغُلب، فـجَسد الشـاب يسـتطيع تحمُّل البِـراز للصبـاح، والجسـد الكامـل أفضـل مـن الجسـد المبتـور.

سـبُّ الديـن تعالـى صوتـه، صـرخ لـه قائـلًا: «انــزِل هنـا.. نايِـــم؟ واللـه لَـحبِـسَك يـا ابـن الزَّانــية يـا خـوَل». والمزيـد مـن الشـتائم أطربـتْ أذنــي، هـذه المـرّة كــكلِّ مـرّة الشــتَّام هـو الضابـط، السـلطة، ولكـنّ المشـتوم أيضًـا هــو السـلطة، عسـكريّ بـرج سـبعة الـذي لـم أسـمع صوتـه، والـذي لـم يـنـمْ أثنـاء الخِـدمَة إلّا هـذه الليلـة. رأيـت صديقـي وهــو يُشــتَم ويُتوعَّـد بالسـجن، فرحـت فيـه، لأنّـه يزعجنـي كلّ ليلـة، ويُذكِّرنـي بالمراقبـة، غفَـل عـن جُنديَّـته وأصبـح سجينًا، نعـم لـن يُحبس مـدّة طويلـة، أسـبوعًا أو أسـبوعين، ولكنّـه سـجين.

تذكَّـرتُ قصـة بنـاء جيـش مصـر الحديـث، كان الأتـراك والألبـان يقبِضـون علـى الفلّاحيــن المصريِّــين ليُصبحـوا جنـودًا، فــيهرب الفلّاحــون مـن معسـكرات التجنيـد، فـيُعيِّنون عليهـم حراسًـا، فـتهرب الحُـراس، وهكذا، تخيَّـل لـو هـرب جميـع الحـراس، لـن يتبــقَّى سـجينٌ واحـد، ربمـا الشـيطان سـيُفكّر قبـل أن يخـرج، سـيُواجه عقبـاتٍ كثيرة، سـيَزداد عدد مَـن سـيَقول لـه: يـا شـيطان.

# ألـوان

هـذا الرجـل ضخـمٌ للغايـة، مِـن أيـن أتـتْ بـه تلـك السـلطة؟ مـن المُمكـن أنّـه كان يعمـل مُوظفًـا عاديًّـا، ولكـن اكتشـفت السـلطة أنَّ مثـل تلـك الأجسـاد الضخمـة تنفعهـا فـي العقـاب، لذلـك أتـتْ بـه. دَعـكَ مـن الأسـاطير التـي تُقـال عنـه مثـل أنّـه يـأكل خمـس دجاجـات وخمسـين بيضـة فـي اليـوم الواحـد، ربّمـا تكـون صحيحـة، هـو هنـا مُخصَّـصٌ لاسـتقبال السـجناء فـي البدايـة، وعقابهـم عنـد التأديـب، يضرِب السـوطَ باستِمتاع. وجهـه أسـودٌ غليـظ، كيـف يُعامِـل أطفالـه فـي البيت، هـل يجلـد زوجتـه عنـد المشـاجرة، أم أنَّ الوحـش الـذي نـراه الآن ينـام فـي بيتـه وسـط أطفالـه، ويسـتيقظ وسـط السـجناء فقـط، ربمـا كذلـك فـي كلّ إنسـانٍ منَّـا إنسـانٌ نائـمٌ يسـتيقظ فـي حـالات الإثـارة التـي تُوظِّفهـا السـلطة. مـن المؤكّـد أن السـلطة هنـا وضعـتْ لـه المثاليَّـة العُليـا فـي تنفيـذ القانـون للحفـاظ علـى سلامة وأمـان النظـام، المثاليَّـة هنـا فـي جلـد أجسـاد السـجناء وانضباطهـا والتحكـم فيهـا وإخضاعهـا، بـل وتصغيرهـا لـكي تنـام فـي ثلاثيـن سـم مربـع مثـلًا.

لـم أكـن أعـرف أنّ السـجين الـذي يَرسـم علـى جسـده يُعاقـب، هـذا الرجـل المفلـوك أمامنـا رَسَـم كلمـاتٍ وخطوطًـا علـى كتفـه وقدمـه،

هـو ظـنَّ أن حرّيّتـه فقـط هـي مِلـك السـلطة، لا يعـرف أنّ جسـده منـذ دخولـه بوابـة السـجن أصبـح مِلـكًا للسـلطة أيضًـا، تفعـل فيـه مـا تشـاء، تقـول لـه تبــرَّز فـيتبــرَّز، تأمره بالركـض، بالتعريـة، بالنوم المُكوَّم، بــعدم الاسـتمناء، فــيفعلها خِفْيَـة، تُطعمـه كيفمـا شـاءت وبالكـمِّ الـذي أرادت، تُحـاول إبقـاءه بـلا أي رسـوماتٍ سـوى خـط السَّـوط عنـد العقـاب الـذي يذهــب مــع الوقــت، أو كلمــة السـجين عنــد الزيــارة، هكــذا تفعــل السـلطة فـي جسـد سَـجينها.

قلـتُ فـي عقلـي: اخـرس الآن. الخرسـانة مُحيطـةٌ بـي، تُغطِّـي العمـران، هــو أقــوى مِنِّــي، كلَّمــا نظــرتُ إليــه شــعرتُ بالضعــف، هــو صلــبٌ، أســمنتٌ لونــه أســود ورمــادي داكــن، لمــاذا لــم يُلوِّنــوا تلــك الأبنِيــة بالأحمـر والأخضـر مثـلًا. اللـون عندهـم جـزءٌ مـن العقـاب، تريد السـلطة مَحـوَ الحيـاة الدنيـا مـن ذاكـرة السـجين وكلّ مـا يتعلَّـق بهـا مـن ألـوان وملابـس ونـوم وأكل واسـتحمام، تريـد أن يعـرف السـجين أنَّ هنـا سـلطة عقابيَّـة لا علاقـة لهـا بالدنيـا، أو لا علاقـة لهـا بالحيـاة الطبيعيَّـة لابـن آدم، هـي حيـاةٌ مـن نـوعٍ آخـر، نسـتطيع أن نُسـمِّيها حيـاة الكائـن الحـيِّ الاسـتـثـنائيِّ التـي أصبحـتْ طبيعيَّـةً مـع التعـوُّد.

كلّ السـجناء مُتشـابهون، أصبحـتْ حيـاةً صامتـة، ولذلـك عندمـا اسـتمرَّ صريخـي لــمُدة شـهرٍ كامل، أخرجونـي، لا يريـدون العيش بــضَوْضاء، من وَجـع أسـناني كنـت أصـرخ، عصـب ضِرسـي تـآكل، أتمنَّـى لـو ينفجـر نافوخـي ويسـكن هـذا الألـم. خرجـت إلـى عيـادة السـجن فـي الصبـاح، اصطَحبنـي رجـلٌ مـن السـلطة، وقـال لـي: بقيَ لكَ شـهرٌ كامـل مِصَدَّعْــنا، اخلَـع ضرسـك اليـوم ولا تُسـمِعنا حِسَّـك مـرّة أخـرى، جاوبتُـه بالتــمـام، وردَّدتُ بعـض الجُمـل كـي يفهـم أنـي لا أريـد الإزعـاج. بالفعـل خلـع

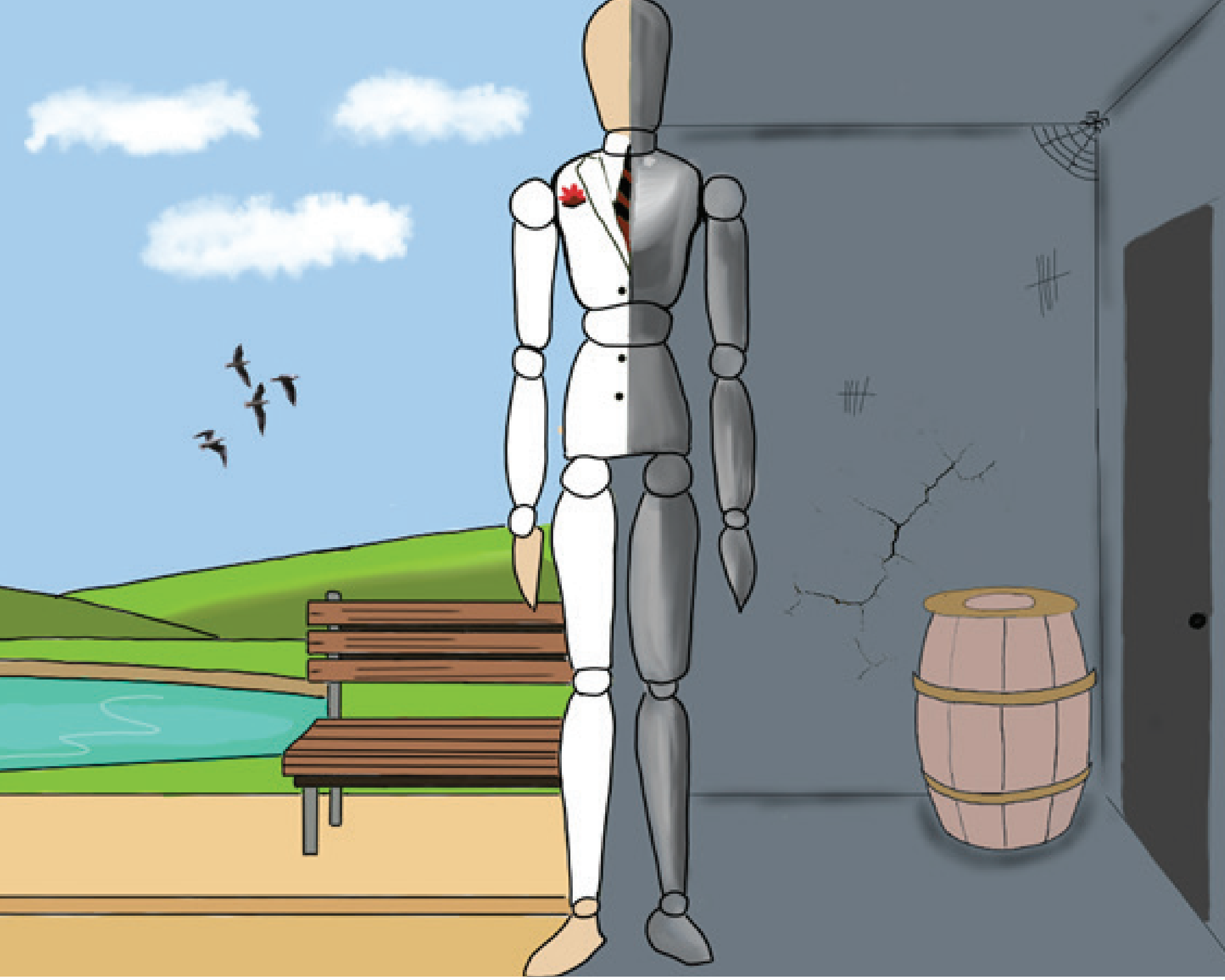

الدكتـور ضِرسـي وسـط آخـر صرخاتـي، ظـلَّ صامتًـا ورشَّ لـي بعـض الكحوليَّـات مـكان الخلـع، وقطنـة في يدي لـحبس تدفُّـق الـدم، انتظرتُ ساعةً حتـى يُكمِل خلـع ضروس بقيـة مَـن مـعي.

رجعنـا جميعًـا مُصطفِّيـن، لا نسـمع إلا صـوت تدريـب عسـاكر كتيبـة معسـكر الأمـن التابعـة للسـجن، لا أعـرف علـى مـاذا يتدرّبـون، ينـادون ويقفـزون ويجـرّون، ربمـا يقصـدون إيصـال رسـالة غيـر مَرئِـيَّة لنـا، مَفادهـا أنَّ عـدد رجـال السـلطة هنـا كثيـرٌ جـدًّا حتّـى وإن لـم تـروه، وأنَّ السـلطة جاهـزةٌ لـضبط وإخضـاع مَـن يحـاول التغريـد خـارج سـرب

قانـون السـلطة التـي تـراه هـي بــعينها وليـس القانـون الـذي تكتبـه باتفـاقٍ مـع أي جهـةٍ أخـرى.

بقـيَ لـيَ القليـل كـي ألــوِّن ملابسـي بــلونٍ غيـر الأزرق، الأزرق هنـا سيكون فـي السـماء فقـط، وربمـا فـي عيـون الجميلـة التـي سـأتزوَّجها، وليـس فـي أجسـادنا، سـأرتدي ملابـس مَلَكِيَّـة بألـوان مختلفـة، ربمـا أشـتري البنطـال أسـود، والقميـص أخضـر، اللـون الأسـود يُذكِّرنـي بــباب الزنزانـة، ولكـنَّ بـاب الزنزانـة وقتئـذٍ لـن يكـون فـي ذاكرتـي ضمـن حاشـية الأعـداء، بـل سـأتذكَّره عندمـا فُتِـح لـي لـآخر مـرةٍ لأخـرج منـه إلـى الحيـاة، وبذلـك سـيكون صديقـي. ولكـن بالمُقابـل عنـد غَلقـه، أُغلِق علـى آخريـن، سـجناء تُعسـاء، يعيشـون سـنوات بـلا حيـاة وبـلا مـوت.

بــاب الحمــام ســيكون مُكتمــلًا، لــن يُعــرِّي أسـفل أو أعلــى جســدي للمنتظريـن، لـن يكـون فـي الأسـاس منتظـرون، سـأجلس علـى قاعـدة الفضـلات الرخاميـة، لـن أعتـلّ، فـإن لـم أُخـرج فضلاتـي الآن فبإمكانـي إخراجهـا فـي الوقـت الـذي أريـد، لـن أغتسـل بـيدي، سـأتقلَّب فـي مسـاحة جديـدة، تصـل إلـى ٣ أمتـار مـن القطـن والقمـاش الناعـم علـى سـريري، سـأنتقل مـن حيـاة الثلاثيـن سـم إلـى حيـاة الأمتـار الواسـعة، مِرآتـي ستسـاعدني علـى التعـرُّف علـى نفسـي مـن جديـد، فقـد نسـيتُها.

سـأبحث عــن امـرأة أتزوجهـا، مُشــتاقٌ أنـا لــرؤية النسـاء، أخرجـتُ مَــنوِيَّاتي كثيـرًا خـلال السـنوات الماضيـة، فـي أقمشـة ملابسـي، وعلـى حوائـط وأرضيـة الحمـام، حتّـى فـي عِـزِّ نومـي وأحلامـي وفوَقانـي. لـن أحـزن إن لـم تـأتِ لـيَ الراقصـة فـي خيالـي، فــقبل أن أنـام أسـتطيع أن أذهـب إلـى مسـرحها، وأرى جسـدها أمامـي دون خيـالات، سـأكون

وقتها مُحرَجًا جدًّا، ربما هي لا تعرف كم قضيتُ أوقاتًا سعيدة معها، وإلى الآن الكثير من السجناء يقضون معها تلك الأوقات، سأوشوِشها في رِفق... أنَّها نائمةٌ الآن في خيال السجناء، وهي سبب سعادتهم، سأحكي لها عمَّا فعلتُ، ربما تعذرني، ليس لديَّ بديل، بل فضَّلتُها عن الكثير من النساء المحفورات في خيالي... هكذا كان الأمر فقط.

خارج السجن لن أشعر بالضيق من جسدي وحاجاته، كما أشعر الآن. الآن انتهى الأمر، ذاهبٌ أنا إلى ما تمنَّيت... أمامي مشهدٌ اشتباكيّ، أجساد رجال العقاب والسجناء، لا أعرف مَن يضرب مَن. العِصيُّ في الأيدي، والأمهاتُ الزانية والوسِخة تتطاير في الهواء خارجةً من الأفواه. قد ثار السجناء، امتنعوا، رفعوا رؤوسهم، تذكَّروا أنّهم أسماء، نسوا الأرقام، لن يتبرَّزوا أمامهم مرةً أُخرى، لن يرقصوا على المسرح، حافظوا على استباحة مؤخراتهم، أجسادُ ذَويهم أيضًا لن تُستباح بعد الآن. جاء جنودٌ بلباسٍ مِيريّ مُكتمل، جنودٌ كُثُر، خوذات وعصيّ أكثر سوادًا، وأجسادهم أكثر مرونة، الاشتباك فُضّ، أُسِرَ السجناء مرةً أخرى، انبطحوا عنوةً، وصارت أجسادهم مداساتٍ للجنود. انتهى الاشتباك، في بالي. أسرِع... أسرِع، أنا خارجٌ الآن، دع الوقت يمرّ، لا تتباطأ بحُجَّة الأوراق والإجراءات. كلبِش يدي، أوصِلني سريعًا إلى العربة الزرقاء، أُريد أن أُطِلَّ على العالم مرةً أخرى، انتهى دوري في هذا العالم، هي مسرحية، صفِّقوا لي وأخرجوني، انتهى دوري، ولكنّها كانت بداية جديدة.

بيضاء في الأصل